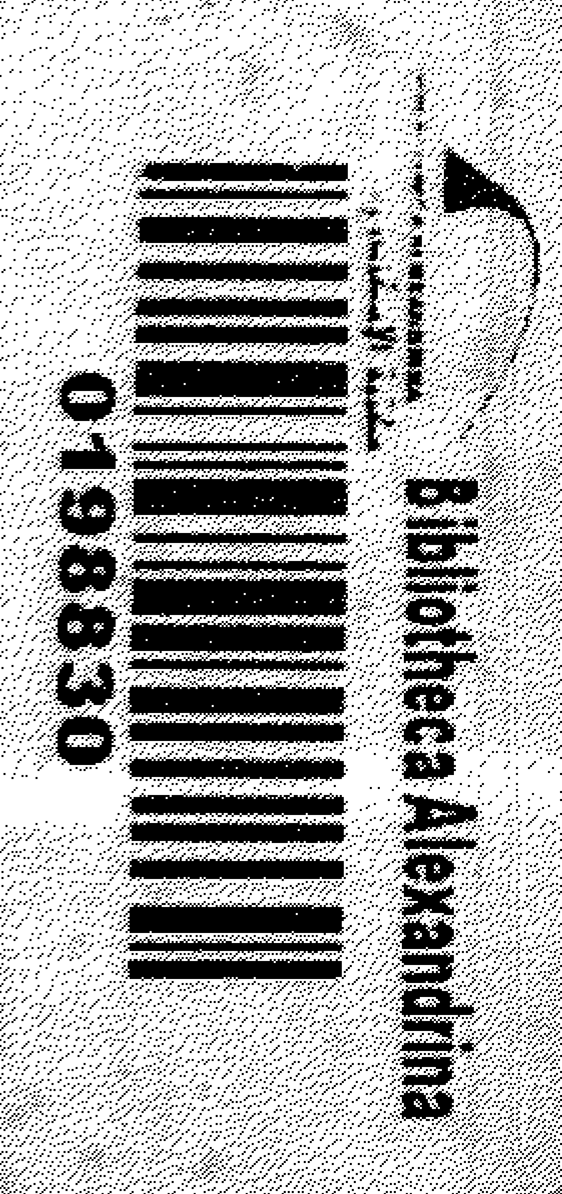
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة



ابن تيمية
إمام السيف والقلم

الأستاذ سعد صادق محمد



العــدد ١٤٨

اهداءات ٢٠٠١

المرحوم الشيخ/ احمد علي فايد

موجه اللغة العربية بوزارة التعليم

كتب إسلامية
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

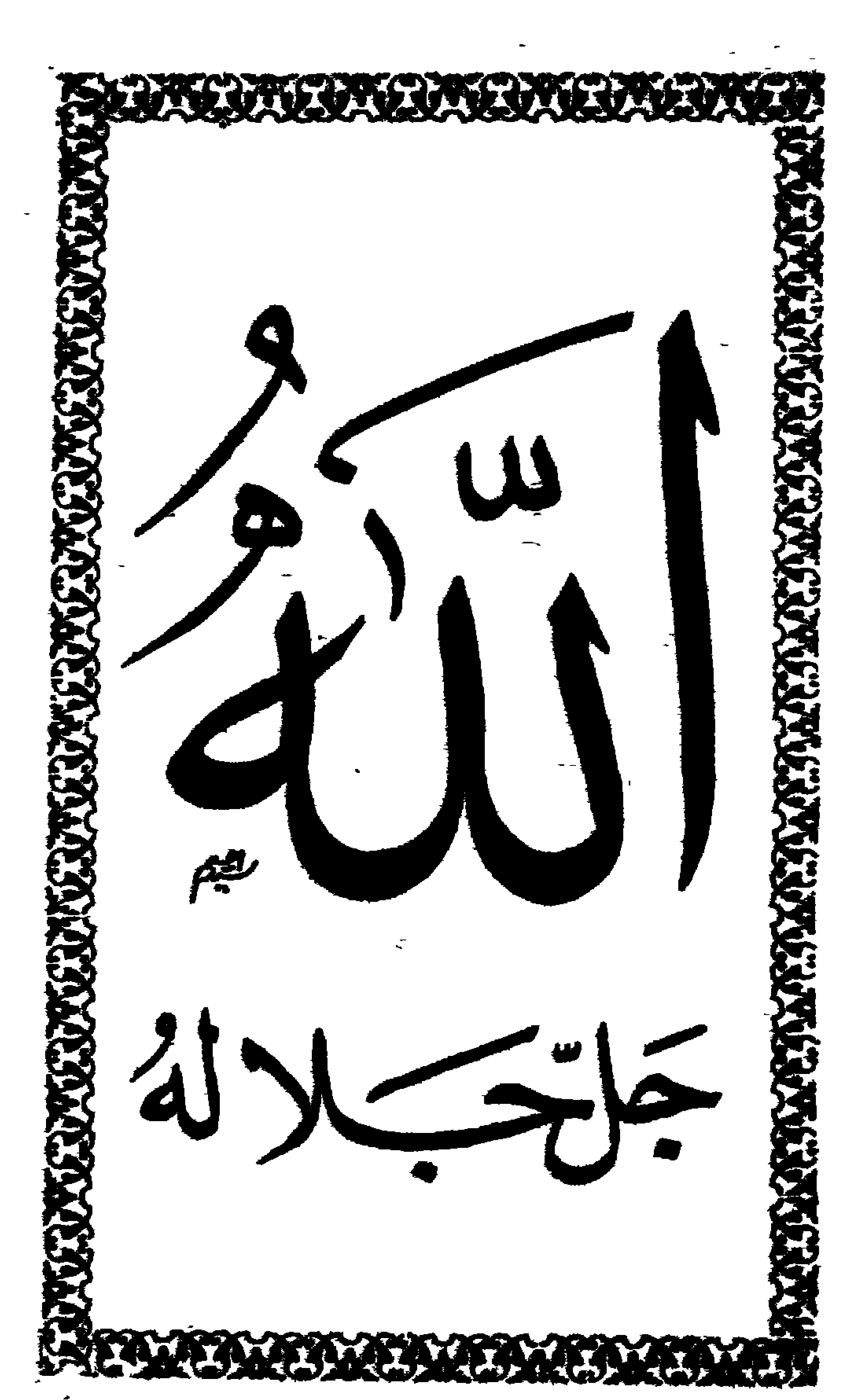
ابن تيمية

إمام السيف والقلم

الأستاذ سعد صادق محمد

العدد ١٤٨
السنة الثالثة عشرة
١٥ من رجب ١٣٩٣ هـ
١٤ من أغسطس ١٩٧٣ م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة


اللہ
جل جلالہ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

« من المؤمنين رجال صـــدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

صدق الله العظيم

مقدمة

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

والصلاة والسلام على خير خلق الله محمد المبعوث رحمة للعالمين ، تلقى الرسالة من ربه ، فدعى الى الحق ، ففتح الله به قلوبا غلفا ، وأعينا عميا ، وآذانا صما ، اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبى الكريم وعلى آله وصحابته ، ومن دعى بدعوته من بعده ، أما بعد :

فان التاريخ الاسلامى ملىء بسير الأبطال والعظماء ، زاخر بقصص القادة والزعماء ، حافل بأمجادهم ، مزدحم بكفاحهم .

وسير العظماء وأعمال المصلحين ، هى زينة التاريخ وحليته ، وهى فوق هذا كله ، تلعب دورا هاما فى حياة الشعوب التى تعيش فى تيه الضلال ، الضاربة فى مجاهل الغفلة والباطل .

وحينما يتحدث التاريخ عن هؤلاء القادة والأبطال ، يذكرهم فى صفحاته بريشة التعظيم والاعزاز ، ويتكلم عنهم فى سطوره بكل فخر واكبار .. ذلك لأن لهم مواقف عظيمة ، وأدوار مجيدة خليقة بان تذكر فى مجال الاعزاز ، وجديرة بأن تكون مفخرة فى مجال الفخر .

والكتاب الذى نقدمه للقارىء المسلم ، وللمكتبة العربية ، يحوى بين سطوره ، سيرة رجل من طراز هؤلاء القادة الذين تحدث التاريخ عنهم بكل فخر واعزاز ، والذين لعبت آراؤهم دورا هاما فى حياة الشعوب .. رجل مصلح بار ، عاش فى مجتمعه برأيه .. وعقيدته ومبدأه .

وعندما يريد المرء أن يكتب عن رجل معروف ونادر مثل هذا ، يصعب عليه أن يتعمق فى كل حياته ، ليبرز جوانبها المتعددة ، وصورها المختلفة ، وخاصة اذا علمنا أن هذا الرجل صـــاحب شخصية نادرة فريدة فى التمسك بالحق والمبدأ والعقيدة ، اذ منذ أن عرف هذا الطريق ووضحت له معالمه ، عاش من أجله ، ومات من أجله .

نقول : مع صعوبة التعمق فى كل حياة هذه الشخصية ، لكننا سنحاول ــ فى هذا الكتاب ــ أن نلقى الضوء على كل جوانبهـــا المختلفة التى عاشتها هذه الشخصية المصلحة ، بصـــورة تجعل القارىء يقف على شيء من حياته .. ونشاته .. وعصره .. وآرائه فى الدين والحياة والفقه والتفسير ، وفى الاجتماع وسياسة الحكم ، كما سنشير الى مكانتهالعلمية .. والى خصومه .. والى أنصاره .. والى جهاده فى سبيل الحق الذى آمن به ، وكافح فى سبيله ، ومات فى ساحته .

والله ولى التوفيق .

ومنه وحده نستمد العون والسداد .

المؤلف

الباب الأول

ابن تيميـــة

نشأته ـ عصره ـ دراسته ـ جهاده

نشـــأته :

لم تكن نشأة هذا العالم الجليل تختلف عن نشأة علماء زمانه، ومفكرى عصره من الفلاسفة والمناطقة المسلمين .

ولد ابن تيمية بمدينة « حران » (1) فى عاشر من ربيع الأول عام ٦٦١ ، واسمه الكامل هو تقى الدين « أحمد بن عبد الحليم ابن عبد الســـلام بن تيمية » ، وكانت ولادته فى أسرة دينية ، عرفت بنزعتها بالورع والتقى ، وحرصها على التزود من علوم الفقه والدين،فأبوه هوشهاب الدين « عبد الحليم بن عبدالسلام ابن عبد الله بن تيمية » نزيل دمشق ، ولد بحران عام ٦٢٧ ، وسمع من أبيه والعلماء ، حتى اذا أتقن العلوم والفقـــه جلس للتدريس والافتاء ، وصار شيخ البلد وخطيبه وحاكمه .

ويذكر الذهبى فى تـــاريخه : أنه درس المذهب الحنبلى على أبيه حتى أتقنه ، فدرس وأفتى وصنف ، وكان اماما محققا ، دينا متواضعا ، حسن الأخلاق ، جوادا بالحسنات والصالحات.

---

(1) حران : بلد موطن للصابئة بالشام ، والصابئة طائفة اختلف المؤرخون فى عقائدها ، قيل : انها لم تكن تدين بدين سماوى ، بل كانت باقية على فطرتها ، وقيل : انها كانت تدين بالتوحيد ، وقيل غير ذلك .. راجع : تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠٤ .

ويقول البرزانى عنه : انه كان من أعيان الحنابلة ، باشر بدمشق دار الحديث السكرية ، وكان له كرسى بالجامع يتكلم عليه أيام الجمع من حفظه •

ذلك هو أبوه ، أما جده ، فهو شيخ الاسلام مجد الدين أبو البركات « عبد السلام بن عبد الله بن تيمية » الحرانى الفقيه الحنبلى،الامام المقرىء المحدث المفسر الأصولى النحوى، وأحد الحفاظ الأعلام •

ولد بحران عام ٥٩٠ ،وأجاد حفظ القرآن الكريم بها ، وسمع من عمه • الخطيب « فخر الدين » وغيره من العلماء الأجلاء ، ثم رحل فى طلب العلم الى بغداد ، وأقام بها ست سنوات ، ينهل من موارد العلوم •

ويروى ابن تيمية « الحفيد » عن جده فيقول « كان جدنا عجبا فى حفظ الأحاديث وسردها ، وحفظ مذاهب الناس بلا كلفة ، ويروى غير حفيده عنه أيضا فيقول : ألين للشيخ المجد الفقه ، كما ألين الحديد لداود •

ويذكر الذهبى : أن الشيخ مجد الدين كان معدم النظير فى زمانه ، رأسا فى الفقه وأصوله ، بارعا فى الحديث ، له فيه اليد الطولى فى معرفة القراءات والتفسير ، وكان فرد زمانه ، مفرط الذكاء ، متين الديانة ، كبير الشأن •

واذا تجاوزنا أباه وجده الى غيرهما من أعضاء أسرة ابن تيمية « الحفيد » نجد أن كثيرين منهم كان له مقامه الجليل فى ميادين العلم والمعرفة ، وسيرهم مذكورة فى كتب الرجال لمن أراد أن يعرف شيئا عنهم ••

من هذه الأسرة العريقة فى العلم انحدر شيخ الاسلام تقى الدين أحمد بن تيمية ، فمنهـا ورث كل عوامل النبوغ والتفوق والحذق ، فاتجه ـ منذ نعومة أظفاره ـ اتجاه أسرته فى البحث والشغف بعلوم الدين والفقه بها ، حتى أصبحت القراءة والاطلاع والتزود بالمعارف لديه أشبه بالشراب والطعام، وساعده على ذلك استعداده الفطرى ، فقد كان صافى الذهن ، مشرق النفس ، متزن العقل ، قوى الحافظة ، دقيق الذاكرة •

عصره :

عاش ابن تيمية فى عصر حالك أسود ، متلاطم بأمـواج من الضعف والفساد والانحراف فى النواحى السياسية ولاجتماعية والفكرية •

ففى الناحية السياسية : انتهى الصراع على الحكم بين الأمويين والعباسيين ، بأن استقر الأمر للعباسيين بالمشرق ، ثم حدثت الفتنة بين الأمين والمأمون ، وكان هـذا ايذانا بتمـزق الوحدة الاسلامية ، وتشتت كيانها ، ثم جدت أحـداث أخرى زادت من رقعة التمزق ، ووسعت من مساحة الضعف •• فقد اعتمد الخلفاء العباسيين على الاتراك السلاجقة ، واتخذوهم جندا بدلا من العرب والموالى ، فأخذت مقاليد الأمور تفلت من يد الخلفاء العرب ، وتنتقل بالتدريج الى يد الدخلاء على الأمة الاسلامية والطارئين على حكم بلادهم ، فعمل هؤلاء الأجانب على الاستئثار بالسلطان ، حتى تحكموا فى الخلافة وأمورها •• بل وفى حياة الخلفاء أنفسهم ، حتى أصبح الخليفة لا يملك من أمره شيئا ، وبذلك كانت السيادة الاسمية للوالى العربى ، أما

السيادة الفعلية والحكم والتصرف ، فكانت للأجانب من الأتراك السلاجقة وغيرهم من الأعاجم .

وكان من نتائج ضعف الخلفاء ، أن استقل بعض حكام البلاد فى الأطراف ، فظهر — تبعا لذلك — دول مستقلة فى رقعة البلاد الاسلامية العربية مثل : الفاطمية ، والحمدانية والسامانية ، والبويهية وغيرهم .

وكان من نتائج هذا الضعف والتمزق أيضا ، أن تعرضت البلاد الاسلامية لخطرين عظيمين : خطر ظهور التتار وزحفهم الى الشام ومصر ، وخطر زحف الفرنج الى هذين الاقليمين .

ويقول ابن الأثير فى الأحداث التى وقعت سنة ٦١٧ هـ :

« لقد بلى الاسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم ، منها ظهور هؤلاء التتر قبحهم الله ، أقبلوا على المشرق ففعلوا الأفعال التى يستعظمها كل من سمع بها . ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب الى الشام ، وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها ، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها ، لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم . — راجع فى هذا : الكامل فى التاريخ ج ١٢ ص ١٣٨ —

اولا — ظهور التتار :

يصف المؤرخون حادثة ظهور التتار : بأنها حادثة عظيمة ، ومصيبة كبرى ، عقمت الأيام والليـــالى عن مثلها ، وأنها عمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، وأن العالم منذ خلق الله تعالى آدم

الى وقت ظهور التتار لم يبتل بمثلها ، لأن التواريخ لم تذكر فى صفحاتها حادثة من حوادث الزمن تقاربها ولا تدانيها ..

ويستطرد المؤرخون — فى وصـــفهم لهذا الحادث العظيم — قائلين : ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم،وتفنى الدنيا،الا يأجوج ومأجوج،وأما الدجال فانه يبقى على من اتبعه ، ويهلك من خالفه ، وهؤلاء — أى التتار — لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنة .

خرج التتار من أطراف الصين ، فقصدوا بلاد تركستان ، ثم منها الى بلاد ما وراء النهر:سمرقند وبخارى وغيرهما فيملكونها، ويفعلون بأهلها الفظائع ، ثم تعبر طائفة منهم خراسان فيعمونها تخريبا وقتلا ونهبا ، ثم يتجاوزونهـــا الى الرى وحمذان وبلد الجبل .. ثم الى حد العراق فى أقل من سنة .

أخذ التتار بغداد ، وقتلوا أكثر أهلها ، كما قتلوا الخليفـــة المعتصم[١] ، وأحرقوا الديار ، وألقوا بالمؤلفات الاســـلامية والتراث العربى فى نهر دجلة وعبروه عليها ، فأزالوا بذلك معالم الثقافة الاسلامية النافعة ، وقضـــوا على أسس الحضـــــارة العربية .

---

(١) هو آخر الخلفاء العباسيين ، وقد تولى منصب الخلافة مدة ثلاث سنوات ونصف سنة وفى هذه الفترة علا شأن مصر وبخاصة بعد وقوفها أمام التتار ، وردهم على أعقابهم مدحورين الى غـــير رجعة .

ويمضى المؤرخون فى حديثهم عن بلاد العالم الاسلامى وغزو التتار بكلام كثير يضيق به المقام هنا عن استيعابه ، يصورون به ما ارتكبوه من فظائع وعظام الأمور •• لكننا سنكتفى بالقدر الذى ذكرناه ، وننهيه بوصف لأحد المؤرخين لموجات التتار حين يصفها بقوله « انها كانت أشبه بهزات الطبيعة العنيفة التى تغير وجه الأرض » •

على هذا النحو من التخريب والتقتيل والتشويه ، واصل التتار ــ بقيادة ملكهم هولاكو ــ زحفهم ، وجاسوا خلال الديار، حتى وصلوا بجموعهم وجحافلهم الى غزة •• فى طريقهم الى مصر لينقضوا عليها ، ويفعلوا بمدنها وبأهلها نفس ما فعلوه بالشام وبمدنها وأهلها •

أما دياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، فهى تنبىء عما عرفوا به من القسوة والفظاعة والوحشية •

ويصف لنا المؤرخون ديانة التتار وتقاليدهم بقولهم « أما ديانتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها ، ولا يحرمون شيئا ، فانهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها ، ولا يعرفون نكاحا ، بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال ، فاذا جاء الولد لا يعرف أباه ــ أنظر : البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص ٨٦ وما بعدها ، الكامل فى التاريخ ج ١٢ الصفحتان ١٣٧ ، ١٣٨ •

ثانيا ـ ظهور الفرنج :

بدأ الفرنج غاراتهم على الشام ومصر قبل غزو التتار للشام، وقبل سقوط بغداد فى أيديهم بنحو أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان •

ويذكر ابن الاثير فى كتابه « البـــداية والنهاية » فى سرده لحوادث عام ٩٤١ (أن سبب خروج الافرنج الى الشام ، أن أصحاب مصر من العلويين ــ ويقصد بهم « الدولة الفاطمية » لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واســـتيلائها على بلاد الشام الى غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخولها وحصرها ، خافوا وأرسلوا الى الافرنج يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكوها ، ويكونوا بينهم وبين المسلمين والله أعلم) •

ومهما يكن القول الذى يرويه المؤرخون بسجلاتهم فى سبب دخول الفرنج الى الشام ، فان الثابت أنهم اســـتمروا يغيرون عليها وعلى مصر ، يحرزون النصر مـــرة ، ويمنون بالهـــزيمة أخرى •

دخل الفرنج أرض الشـــام ، فاستولوا على أكثر حصونهـــا وقلاعها ، ثم استولوا على مدنها « عكا ويافا وبيروت وصـــور وعسقلان » وغيرها ، كما استولوا على « بيت المقدس » وقتلوا به ما يزيد على سبعين ألفا ، منهم : أئمة مســـلمين ، وعلمـــاء أجلاء ، فضلا عمن سبوه من الحريم والأولاد •

لكن الحمية الاسـلامية الأصـيلة ، والدماء العربية الفائرة دوما فى عروق الأبطال العرب لنصرة حمى الاسـلام ، وقوة الوحدة العربية •• أبت هذه الحمية ، وهذه الدمـاء أن تهان الكرامة الاسلامية ، وأن تدنس أرض العروبة بأقدام الافرنج النجسة ، وأن يجعلوا العالم الاسلامى العربى تحت السيادة الأجنبية الظالمة الغاشمة •

لذلك هب الأبطال من أبناء مصر لنجدة اخوانهم بالشـام ، عملا بوصايا النبى صلى الله عليه وسلم « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشـد بعضه بعضا » « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » •

نعم •• ان الأمة الاسلامية جزء واحد فى احساسها وروحها، وهى ــ كما وصفها الصادق المصدوق رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ كالجسد الواحد ، اذا جرح منه عضو تألم الجسـد كله ، ذلك لأن الروح واحدة ، والاحسـاس واحد ، والدماء تجرى فى كل عروقه •

وفى هذا أيضا يقول شاعر العروبة المصرى « على الجارم » فى قصيدة له : ــ

تذوب حشـاشـات العـواصم حسـرة
اذا دميت من كف « بغـداد » اصـبع

ولو صـدعت فى سـفح لبنـان صخـرة

لدك ذرا الأهـرام هـذا التصـدع

ولـو « بردى » أنت لخطب ميـاهه

لسـالت بوادى النيـل للنيـل أدمـع

ولو مس « رضوى » عاصف الريـح مرة

لبـاتت لهـا أكبادنـا تتقطـع

هب الأبطال من أبناء مصر لنصرة اخوانهم بالشام ، فتعاون البلدان الشقيقان « مصر والشام » على رد عادية الافرنـج وطردهم من الأماكن المقدسة « أرض الأنبياء ومهبط الرسل » ودحرهم دحرا تتحدث به الأجيال المتعاقبة من أبنـاء الأمـة الاسلامية العربية •

وظلت رحى الحرب بين المسلمين والفرنج دائرة نحو قرنين من الزمان ، وكانت المعارك بين الطرفين لا تكاد تخمد نارهـا حتى تعود لتندلع من جديد فى الشام أو فى مصر ، ولا ننسى هنا، الدور الذى لعبـه القـائد البطـل الخـالد « صـلاح الدين الأيوبى » وما أداه من بطولات عظيمة مجيدة لتخليص الأماكن المقدسة من أيدى الفرنج الذين عبثـوا بالأراضى المقدسـة ، وأحالوا « المسجد الأقصى » كنيسة ، فاسـترد البطل العظيم كثيرا من الأراضى العربية المقدسة من أيدى الطامعين الغاصبين، لكن الرغبـة الجامحة عند هـؤلاء الغاصبين ، كانت متأججـة مسـعورة ، فهى لم تفتر لضـياع بلد أو بلدين ، بل كانت تشتد وتغريهم بالاعتداء لاسـترداد ما يكون قد ضاع منهم ،

ودخل فى حـوزة العرب ، فكان البلد الواحد ـ مثل « عـكا ويافا » وغيرهما ـ يدخل فى حوزة كل طرف أكثر من مرة •

ولا نريد أن نتتبع هنا تفاصيل الحـروب التى وقعت بين المسلمين والفرنج لنصل الى النهاية التى وصلت اليها معاركهما، وهى معـارك ـ وان طالت ـ انتهت بانتصار المسلمين ، وذلك مشروح بالتفصيل فى كتب التاريخ ـ راجع : البداية والنهاية لابن الأثير ، الكامل فى التاريخ وغيرهما ، فان ذلك لا يعنينا فى شىء ، وانما الذى يعنينا ويهمنا من ذكر أخبار هذه الحـروب بايجاز ، هو بيان العصر الذى عاش فيه الامام المجاهد شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ، وتصوير طبيعة هذا العصر الحـالك من الناحية السـياسية ، حيث كان طابعه : القلاقل والهزات ، الأمر الذى ألقى على كاهل ابن تيمية وغيره من العلمـاء مهمة الدفاع عن أمجاد الاسلام وتراثه وكرامته ، وأن يردوا عن حمى وطنهم الاسلامى العزيز عدوان الباغين الظالمين •

ثالثا ـ الناحية الاجتماعية :

مجتمع أجناس وطبقات :

عاش ابن تيمية فى مجتمع يتكون من أجناس وطبقات شتى، ليسوا جميعا من جنس واحد ، ولا يـربطهم مذهب واحـد ، ولا تجمعهم عقيدة واحدة ، ولا تمسكهم عادات وتقاليد واحدة، لها أسس وغايات مشتركة •• بل كان مجتمعا متنافرا ، بعيدا عن التجاذب ، بعيدا عن التآلف • كان كل جنس من أجناس ذلك المجتمع يعمل لنفسه •• ولعقيدته •• ولمذهبه •• ولتقاليده ••

ولعاداته التى توارثها من اقليمه وقومه وبيئته ، لـكنهم ــ مع هذا الاختلاف ــ كانوا يجتمعون ســاعة الخطر للدفــاع عن الأرض التى تقلهم ، والديار التى تؤويهم ، والتى ينعمــون بخيراتها •

التقى فى ذلك العصر أقــوام وأجنــاس مختلفة « أتراك ، ومصريون ، وشاميون ، وعراقيون ، وأرمن ، واسرائيليــون ، وفرنجه ، وتتار وقعوا فى الأسر فى الحروب » •

هذه الأجناس المختلفة فى العادات والتقــاليد ، المتباينة فى العقائد والمذاهب والأخلاق والأفكار ، عاشوا جميعا فى صعيد واحد ، تحكم كل جنس عقائده وعاداته وأخلاقه، فخلق ذلك التباين والاختلاف منهم مجتمعا مضطربا مهزوزا ، وانعــكس ذلك على الحياة السياسية والقضائية •

وتبعا لاختلاف هذا المجتمع ، انقسم المجتمع الى طبقات ، يتلو بعضها بعضا فى المراتب الاجتماعية •• وفى السلطان •• وفى النفوذ •• وفى الحكم •

وعما بلغه ذلك المجتمع من طبقية ومراتب ، وأثر التتار فى هذا « فى الشام ومصر » يتحدث المؤرخ المقريزى فيقول :

« فلما كثرت وقائع التتر فى بلاد المشرق والشــمال ، وبلاد القبجاق ، وأسروا كثيرا منهم وباعوهم ، تنقلوا فى الاقطار ، واشترى « الملك الصالح نجم الدين بن أيوب » جماعة منهم ، سماهم « البحرية » ومنهم من ملك ديار مصر ، وأولهم « المعز ابن أيبك » ، ثم كانت للملك المظفر « قطز » معهم الواقعــة

المشهورة على « عين جالوت » وهزم التتار ، وأسر منهم خَلقة كثيرا صاروا بمصر والشام .

« ثم كثرت الوافدية فى أيام الملك الظاهر « بيبرس » وملئو مصر والشام .. فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغـل وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم ، هذا وملوك مصر وأمراؤها وعساكرها قد ملئت قلوبهم رعبا من « جنكيزخان » وبنيـه وامتزج بلحمهم ودمهم مهابتهم وتعظيمهم . « وكانوا — أى التتار — انما ربوا بدار الاسلام ، ولقنوا القرآن وأحكام الملة المحمدية ، فجمعوا بين الحق والباطل ، وضموا الجيد والردىء وفوضوا لقاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتـام وجعلوا اليه النظر فى الأقضـية الشرعية ، كتداعى الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك .

واحتاجوا فى ذات أنفسهم الى الرجوع لعهد جنكيزخـان والاقتداء بحكم « **الياسه** »[1] ، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم ، والأخذ على يد قويهم وانصاف الضعيف منه على مقتضى مافى « آلياسه » وجعلوا مع ذلك النظر فى قضايا الدواوين السـلطانية عند الاختلاف فى أمور الاقطاعات ، لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديوان وقواعد الحساب » راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٣١ —

---

(١) الياسة : اسم كتاب وضعه جنكيزخان ، قرر فيه قواعد وعقوبات لأفراد المجتمع .

ومن كلام المقريزى الذى أورده فى خططه يتضح لنا الصورة الخاصة للحالة الاجتماعية التى كان يعيش فيه المجتمع فى عصر ابن تيمية ، وكيف كانت تتحكم فيه الطبقية والمراتب •

أما الصورة العامة لذلك المجتمع ، فانه كان يتألف من ثلاث طبقات منهما طبقتان كبيرتان ، ظهر لكل منهما نفوذها ومكانتها فالطبقة الأولى : طبقة الأمراء ، وكان يقوم على رأسهم « السلطان » ، وكان حظ هذه الطبقة من النفوذ والجاه « نصيب الأسد » لأن هذه الطبقة كان لها سلطان الحكم والنفوذ والتصرف •

والقوة الأخرى هى : طبقة العلماء والفقهاء وكبار رجال الدين ، وقد استمدت هذه الطبقة قوتها من الدين ، فالمعروف أن الدين له تأثير روحى فى نفوس المسلمين ، نظرا لما له عندهم من تقدير واحترام وقدسية •• ومن هنا فإن لرجال الدين عند العامة مكانة التقديس والتقدير ، ويمكن أن نلمس نفوذ رجال الدين عند عامة الشعب فيما يروى عن نفوذ ابن تيمية[1] — وعز الدين بن عبد السلام ، ومحى الدين النووى ، وغيرهم من العلماء — على السلاطين وعلى الشعب كله ، وننقل هنا أحد مواقف الشيخ عز الدين بن عبد السلام مع سلاطين عصره وأمرائه •

فحين شرع الملك المظفر الخروج لمحاربة التتار بالشام ، وجد

---

(1) سيأتى الحديث عن مواقف ابن تيمية أيضا عند الكلام عن جهاده .

أن ما عنده من المال لا يكفى للتجهز للحرب ، وأعلن أنه محتاج الى المساعدة المادية من أموال الشعب لتجهيز الجند للسفر ، واعداد ما تتطلبه الحرب .

وجمع الملك المظفر القضاة والفقهاء والأعيان ليستشيرهم فى هذا الأمر وطلب منهم الموافقة على مانواه وأراده ، فسكت جميع من كان بالمجلس من الأعيان والفقهاء والقضاة ، ما عدا الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، الذى قام من مجلسه وقال هذه الكلمة :

« اذا طرق العدو بلاد الاسلام وجب على الحاكم قتالهم ، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط الا يبقى فى بيت المال شىء من السلاح والسروج الذهبية والفضية والكبابيش المزركشة واسقاط السيوف الفضية وغير ذلك ، وتبيعوا ما لكم من الحوائص الذهبية والآلات النفيسة ، ويقتصر كل الجند على سلاحه ومركوبه ، ويتساووا هم والعامة، وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا [1] ما فى أيدى الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا » ـ راجع : النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة لأبى المحاسن ج ٧ ص ٧٢ طبعة دار الكتب المصرية ..

هكذا ألقى الشيخ عز الدين كلمته هادرة مدوية دون أن يعبأ أو يهتم بما سوف يكون بعد ذلك من القبض عليه ، وبما سوف

---

(١) لعل المؤرخ يقصد : أما أن يبقى الملك ما فى ايدى الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا ، بل عليه أن يأخذ كل هذا كما يأخذ الأموال من الرعية ، فالجميع أمام مصلحة البلاد سواء .

يتعرض له من اضطهاد ومهانة وبلاء ، لكن الملك المظفر قبل من الشيخ قولته ، واحترم رأيه ، وعمل بمشورته •• فكان ذلك من عوامل اتيان النصر من الله •

أما الشيخ محى الدين النووى ، فله مواقف بطولية ثابتــة مشهودة وقفها فى عهد الملك « الظاهر بيبرس » ، كما أن له مراسلات توجيهية مرشدة لهذا الملك ، تتمثل فى طلب العدل مع الرعية فى المكوس ، ورفع المظالم عنهم •

وهذا مثل ثالث ينقله لنا المؤرخ ابن كثير عن ابن بنت الأعز من العلماء ، يوضح لنا فيه ما كان يشــغله من مناصب هامة فيقــول :

« وكان بيده سبعة عشر منصبا ، منها : القضاء والخطابة ، ونظر الأحباس ، ومشيخة الشيوخ ، ونظر الخزانة ، وتداريس كبار »

ذكرنا هذه الأمثلة ، للدلالة على ما كان يحظى به علماء الدين فى ذلك العصر من عيشة رضية ، وعلو الشأن والاحترام ، ومن ذلك أيضا ما كان يغدقه عليهم السلاطين والأمراء من مناصب ذات مراتب عالية سخية ، بقصد استمالتهم الى جانبهم ، ولكى ينالوا رضاهم عنهم ، نظرا لما لهم من يد عليا فى تحريك ســخط الشعب أو رضاهم •

اختلاف التقاضى :

اختلفت جهــات التشريع والتقاضى والتحــاكم عند أولئك الأجناس فى ذلك العصر تبعــا لاختلاف عاداتهم وتقاليدهم ،

اذ كثر جنس التتار بمصر والشام ــ بسبب الأسر أو بغيره ــ فأقاموا فى البلدين ، ونشأوا كنشأة أهلها ، وأحلهم ملوك مصر وأمراؤها فى المجتمعات محلا مرموقا عظيما ، حتى وصل بعضهم الى مراكز الحكم والسلطان •

كما أن التتار احتفظوا بكثير من القواعد القانونية التى وضعها لهم ملكهم « جنكيزخان » وهى التى كانت محتوى لكتابه المسمى بـ « الياسة » السابق الاشارة اليه ، فكانوا يتحاكمون حسب قواعد ومبادىء هذا الكتاب الذى أحلوه من قلوبهم محل الحب والتعظيم ، وقدسوه كتقديس المسلمين للقرآن المنزل من عند الله تعـــالى •

وكانت هذه القواعد والمبادىء التى احتواها كتاب ملكهم ، تختلف تماما عن القواعد والمبادىء التى جاء بها الاسلام لتنظيم شئون المسلمين •

ومن الواضح أن الاســـلام يعتبر كل عمل مخالف للتشريع الاســـلامى ، أمر يدخل صاحب هــذا العمل فى محيط الكفر والفسق ، ويقول الله تعالى فيمن يتحاكمون الى غير ما أنزل الله (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ــ ســورة المائدة) ويقول جل شأنه (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ــ سورة المائدة) •

أما المسلمون ، فقد كانوا يتقاضون ويتحاكمون حسب التشريع الاسلامى ، وحسب مذهب فقهى من المذاهب الأربعة ، وبهذا توحدت جهة التشريع والتقاضى عند المسلمين ، ومن دان بالدين

الاسلامى ، فكان هناك قاض واحـــد فى كل بلد من « مصر والشام » يتولى الحكم والقضاء حسب مذهبه الفقهى .

لكن الأمر تغير بعد ذلك فى عهد السلطان الظاهر « بيبرس » اذ عين قضاة من بقية المذاهب الأربعة فى كل بلد ، يســتقل كل قاض بالنظر فيما يعرض عليه من دعاوى ، ويحكم فيها حسب مذهبه الفقهى الذى يتعبد عليه ، وبهذا تعددت الأحكام تبعا لتعدد المذاهب ، وتلاشت وحدة التشريع والقضاء ، لأن المذاهب الأربعة يوجد بينها اختلافات كثيرة فى الأحكام والآراء .

أما السبب الذى دعى الظاهر « بيبرس » الى أن يجـــرى التعدد فى جهات التشريع والقضاء ، واشتراك المذاهب الثلاثة فيها هو : أن القاضى ابن بنت الأعز ــ الذى كان بيده القضاء كله فى مصر ــ كان يصدر الأحكام حسب مذهب « الشافعى » الذى كان يدين به ، بينما كان يتوقف فى اصدار الأحكام حسب المذاهب الثلاثة الأخرى التى تخالف مذهبه .

تعدد الأديان والعقائد :

والمجتمع الذى كان يضم عناصر شتى وأجناس مختلفة حرى بأن تتعدد فيه الفرق ، وان تكثر فيه النوازع الدينية والعقائدية .. كان يعيش فى ذلك المجتمع مسلمون ، كما كان يعيش فيه : فرق الرافضة ، والاسماعيلية والشيعة ، واليهود والنصارى ــ وهما أهل ذمة .

أدى وجود هــذه الفرق فى عصر ابن تيمية الى قيام صراع بينهما ، فكانت كل فرقة تعمل جاهدة لنصرة معتقداتها وآرائها

ومذهبها •• وكانت كل فرقة تحارب الفرقة الأخرى ، وتعمل للقضاء عليها وعلى شيعتها ومعتقداتها •

فالوزير العلقمى ، وزير آخر الخلفاء العباسيين ببغداد هو رافضى النزعة ، دفعه عداؤه الشديد لأهل السنة ، الى أن يعمل على تيسير دخول التتار الى بغداد •

والاسماعيلية ، طائفة من طوائف الشيعة والرافضة الذين انشقوا عن الاسلام بعقائدهم وآرائهم الفاسدة ، عملوا هم أيضا ضد الاسلام ، ولهم تاريخ حافل بالشر والكيد له ولأهله ، لكن المسلمين — فى ذلك العهد — كانوا على يقظة دائما من هذه الفرق لحربها ، والعمل على اخماد نار شرورها •

أما أهل الكتاب « اليهود والنصارى » من غير هذه الفرق ، فكانوا ينحازون الى جانب التتار ضد المسلمين ، وكانوا يجاهرونهم بالعداء لاثارة حفيظتهم مثل : اتيان المحرمات فى شهر رمضان ، والقاء الخمر على ثياب المسلمين ، وعلى أبواب المساجد ، واجبار الناس من غير ملتهم على احترام شعائرهم ، والمناداة بانتصار دينهم ، مما أثار المسلمين ، فكانوا يشكون أمرهم الى « كتبغا » نائب هولاكو ، لكن ذلك النائب زاد من غضبهم وألمهم ، اذ أهان من ذهب يشكو اليه من المسلمين ، بل وزاد فى اهانتهم ، بأن عظم من قدر هذه الطوائف غير المسلمة ، ونزل الى دور معابدهم ، وشاركهم فى اقامة شعائرهم ، وكتب التاريخ حافلة بهذه الأخبار المؤلمة •

ولا ننسى الفتن والاضطرابات التى كانت تثيرها الفرق الاسلامية فى المجتمع ، لوجود خلاف بينها فى مسائل علم

الكلام •• فقد خاضت هذه الفرق فى الحـديث عن : كلام الله تعالى ، وهل هو قديم وأزلى ، وهل له صوت وحرف ، كما نراه فى المصحف ونسمعه ونقرأه ؟ ••

وكان الأمراء والملوك ينحازون الى هذه الفرق •• كل أمير أو ملك ينحاز الى الفرقة التى يؤمن بمعتقداتها ، فيناصر مذهبها ، ويعمل على اعزاز فرقته ، واهانة أعدائها •

انحـــلال خلقى :

انعكست طبيعة ذلك المجتمع المتفرق أجناسا ، المتمزق مذهبا المتباعد فكريا وعقائديا ودينيا •• انعكست طبيعته على صور حياته الخلقية ، اذ دب فيه الانحلال الخلقى ، وشاعت المنكرات، وأبيحت المحرمات بصـــورة أثارت حمية بعض رجـــال الدين الغيورين ، الذين أبوا أن يقفوا جامدين أمام ما يؤذى عيونهم، ويؤلم أفكارهم ، ويهز احساسهم ، فدفعهم ذلك الى القيـــام لمكافحة هذا البـــلاء الذى أصـــيب به ذلك المجتمع المتهالك ، وكانوا ينجحون فى تغيير المنكرات والقضاء على المحرمات ، ولهم فى محاربة هذا الوباء مواقف مشهودة ، سجلتها كتب التاريخ ــ راجع : طبقات ابن الســبكى ج ٥ ص ٨١ ــ ٨٢ ، شـــذرات الذهب ج ٥ ص ٣٠٢ ، الســـلوك للمقريزى ج ١ ص ٥٥٣ ــ

الناحية العلمية :

تأثر كثير من العلماء والفقهاء بالســـابقين منهم فى الفقه والتفسير وغير ذلك من العلوم الدينية ــ وهم الذين حكموا بسد باب الاجتهاد فى القرن الرابع الهجرى ــ •• تأثر العلماء والفقهاء

فى عصر ابن تيمية بهذا الوضع من الناحية العلمية ، فجمدت أفكارهم ، ووقفت عقولهم عند هذا الحد ، فكانوا ينكبون على كتب المذاهب الأربعة يتناولونها بالشرح حينا،والاختصار حينا آخر ، ولم يحاولوا الخروج عن هذه الدائرة الى اعمال الفكر ، وتحريك العقل فى الاجتهاد والاستنباط ، ومعرفة الطيب من الخبيث ،والحسن من الردىء ، والهدى من الضلال ، والوثنية من التوحيد •• ظلت أفكارهم هكذا مقيدة فى أغلال التقليد للقديم ، والتبعية للموروث ، فلم تظهر روح للتجديد ، ولاسمات للابتكار،ولم يجرؤ أحد على الخروج عن هذه الدائرة التىوجدوا فيها الأولين ، فعملوا فى هذه الدائرة الضيقة المظلمة ، ولسانهم يردد قولة من سبقوهم من الجاهلية الأولى (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) •

وفى هذا يقول المؤرخ ، وعالم الاجتماع ابن خلدون « ووقف التقليد فى الأمصار عند هؤلاء الأربعة — أى المذاهب الأربعة المعروفة — ودرس المقلدون لمنسواهم،وسد الناسباب الاجتهاد وطرقه وردوا الناس الىتقليد هؤلاء،ولم يبق الا نقل مذاهبهم، وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول ، واتصال مسندها بالرواية •• لا محصول اليوم للفقه غير هذا ، ومدعى الاجتهاد فى هذا العهد مردود على عقبه ، مهجور تقليده وقد صار أهل الاسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأربعة — راجع مقدمة ابن خلدون ص ٣٥٥

وكما جمد رجال الدين على القديم ، وقيدوا أنفسهم بالتقليد والتبعية ، تبعهم فى هذا الطريق عامة الشعب ، اذ ساروا هم أيضا على القديم ، وتشبثوا به •

على أن الذى يمكن أن نشير اليه باهتمام من سمات ذلك العصر فى محيط الدين الاسلامى ، قوة أمر التصوف ، واشتداد نفوذ رجاله على العامة ، ومكانتهم عندهم •• وعند السلاطين والأمراء أنفسهم •

كان الشيخ ابن تيمية يرى أن وجود التصوف فى العالم الاسلامى ، هو أحد الأسباب الرئيسية فى تولد الركود فى الرأى والاجتهاد فى الدين — كما كان وجود التصوف نقطة بدء فيما أصاب المسلمين من ضعف وذل وتأخر ، فان التصوف علم أهله اللجوء الى التكايا والخوانق ، وعلمهم الاضراب عن الزواج ، وشجعهم على الجوع والحرمان من طيبات الحياة التى أحلها الله لعباده ، بدعوى الزهد عما فى أيدى الناس من زخارف الدنيا ومباهجها • فلبسوا المرقع والقذر ، وظهروا بصورة منفرة بعيدة عن جمال الاسلام ، وعلمهم ذلك العزلة والانكماش، وجعلهم يهربون من واقع الحياة وميادينها العلمية الجادة •• الى عالم الأوهام والأمانى والخيالات •

كما يرى الشيخ ان التصوف حبذ اقامة موالد الأولياء والصالحين ، وعلم المسلمين أن يفزعوا الى أضرحة الموتى ومزاراتهم عند الضيق والمرض يطلبون منهم كشف الضر ، وجلب الخير ، وهذا كله يتنافى مع دعوة التوحيد وعقائد الاسلام التى تطلب من المسلم أن يتوجه الى الله وحده فى كل أمر من أمور حياته فالله تعالى يقول فى كتابه العزيز « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان •• » ويقول ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) •

كما كان الشيخ يرى أن التصــوف أوجد كثيرا من البدع والخرافات التى انتشرت فى العالم الاسلامى ، فشوهت جمال تعاليم الاسلام ، وغيرت كثيرا من تقاليده فى نفوس المسلمين •

كان التصــوف فى عصر ابن تيمية ـــ وكما نرى فى الوقت الحاضر ـــ يمثل سلطة روحية على عامة المسلمين ، وعلى بعض خاصتهم من ذوى الثقافات المختلفة •• كانت لهم شعبية كبيرة، فاعتقد جماهير المسلمين أن الاسلام الحق ، هو هذا الذى يتمثل فى التصوف ورجاله •

ولهذا كان على الامام ابن تيمية عبئا كبيرا فى زحزحة عقائد المسلمين عن الخرافات والأباطيل التى نشرتها هــذه الطائفة ، وارجاعهم الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وســـلم ، ففيهما العقيدة الصحيحة ، والأفكار السليمة ، وفيهما الاسلام فى بساطته وسماحته ويسره ، وفيهما كل ما تقوم به الحياة •

الثقافة ومراكزها فى هذا العصر :

بعد أن تناولنا الحديث عن ســمات ذلك العصر من الناحيــة الدينية ، والقوة التى كانت مســيطرة على جماهير المســلمين بنفوذها وانتشار عقائدها ، نستطيع أن نتكلم عن مراكز العلم التى كانت موجودة فى العالم الاسلامى فى ذلك العصر •

فمن المعلوم ، أن بغداد كانت ضمن مراكز العلم الكبيرة فى الوطن العربى ، لكن بعد ان هاجم التتار بغــداد ، وأعملوا فى البلاد هدما وتخريبا دون تمييز ولا تفريق ، ضــاعت المكتبة الاسلامية بما فيها من تراث اسلامى كان يحمل أسس الحضارة

والتقدم فى العالم الاسلامى ، ولم يستطع العلماء والفقهاء أن يعملوا فى جو الارهاب والسوط الذى ساد الحياة فى بغداد ، فاضطروا الى الفرار صوب مراكز العلم فى مدن الشام ومصر ، ليجدوا هنالك الاستقرار والأمن والحياة ، ونذكر من أهم مراكز العلم فى هذه المدن « الجامع الأزهر » — حيث كان يقصده طلاب العلم وعشاق المعرفة — ، وجامع المعدود فى الشام — وكان فى مقدمة مراكز العلم ، وطليعة معاهد المعرفة فيها .

وفى هذه المراكز كانت تدرس مواد الفقة والتفسير والحديث والتاريخ والنحو والصرف ، وغيرها من علوم الدين واللغة .. هذا خلاف ما كان يدرس فيها من علوم الفلسفة والفلك والهندسة والرياضيات والطب .

وقد خرجت هذه المراكز الهامة فى مدن مصر « القاهرة والاسكندرية والفيوم وأسيوط » وفى مدن الشام « حلب ودمشق وحمص وحماة » خرجت هذه المراكز : علماء وفقهاء لهم آثارهم الفقهية التى تتخذ اليوم مراجع فى الفقه والتفسير .

دراسته وتعليمه :

تكلمنا تحت عنوان « نشأة ابن تيمية وعصره » عن الأسرة الدينية التى انجبت ابن تيمية [1] ، فعرفنا شيئا عن نشأة

---

(1) يقال فى سبب شهرته بابن تيمية أن جده محمد بن الخضر حج وله امرأة حامل ، ومر فى طريقه على « درب تيماء » فرأى هناك جارية طفلة خرجت من خبائها ، فلما رجع الى حران وجد امرأته قد ولدت بنتا ، فلما رآها قال « يا تيمية » فلقب بذلك .

والده ، شهاب الدين « عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله ابن تيمية » وجده محى الدين أبو البركات « عبد السلام بن عبد الله بن تيمية » ، وعرفنا كيف كانت مكانتهما الدينية ، بما فتح الله عليهما من علم والمام وتفقه بأصول العقيدة والتفسير والفقه ، واشتغالهما بالتدريس ، كما وضحنا شهادة الفقهاء والعلماء فى فضلهما ومكانتهما العلمية •

أما ابن تيمية الحفيد ، فقد نشأ وارثا لأبيه وجده •• أحب العلم وعشق المعرفة ، فكان لديه الاستعداد لهذا بالوراثة ، والى جانب وراثته لبيئته فى العلم ، جمع الله له عاملين آخرين ، الأول : معاصرته لبيئة تزخر بالعلم وتزدحم بالمعرفة ، والثانى: تمتعه بصفاء الذهن ، واشراقة النفس ، واتزان العقل ، ودقة الذاكرة •• وهكذا اجتمعت لابن تيمية كل عوامل التفوق والنبوغ •

أخذ ابن تيمية فى تحصيل الدرس وطلب العلم وعاش طوال حياته يبحث عن زاد العقل ، حتى أوفى فيه على الغاية ، وطاول فيه معاصريه وبلغ أقدارهم ومكانتهم •

ومما يروى عن نبوغه : أنه كان يجلس يوما فى حضرة أحد الشيوخ الذين سمعوا عن نبوغه •• قال له الشيخ وهو ينظر اليه فى تفحص وامعان : امسح لوحك حتى أملى عليك بعض الأحاديث •

ومسح الفتى لوحه ، وأملى عليه الشيخ أحد عشر حديثا عن متون الأحاديث ، ثم طلب منه الشيخ أن يقرأ الآحاديث ، ولكن الفتى تأمل اللوحة مرة واحدة ، ثم أعطى اللوح للشيخ ،

وأخذ يشجعها له ، وكأنه ظل يحفظها أياما وليالى طويلة ، وعندئذ دهش الشيخ وقال : لو عاش هذا الصبى لكان له شأن عظيم .

على هذا النحو حفظ ابن تيمية : القرآن والحديث ، وعلوم اللغة العربية وآدابها ونحوها ، واتجه لدراسة الأحكام الفقهية والعلوم الدينية ، وكان يستمع الى مناقشات العلماء ، وآراء الأدباء ، ومساجلات الفقهاء ، بل انه كان يمتاز بقولة الحق فى قوة ، والمصارحة بالرأى فى اصرار ، والمناصحة فى تقوى ، لا يخاف فى الله لومة لائم .

ويذكر ابن الوردى عن نشأة ابن تيمية العلمية : أنه بعد أن تعلم الخط والحسابات ، وحفظ القرآن فى المكتب ، أقبل على الفقه والعربية ، وبرع فى النحو ، ثم أقبل على التفسير اقبالا كليا حتى سبق فيه ، وأحكم أصول الفقة ، كل هذا وهو ابن بضع عشرة سنة ، فانبهر الفضلاء من فرط ذكائه ، وسيلان ذهنه ، وقوة حافظته وادراكه ، ونشأ فى تصون وعفاف وتعبد ، واقتصاد فى الملبس والمأكل ، وكان يحضر المحافل فى صغره ، فيناظر ويفحم الكبار ، ويأتى بما يتحيرون فيه ، وأفتى وله أقل من تسع عشرة سنة ، وشرع فى الجمع والتأليف ، ومات والده وله احدى وعشرون سنة ، وبعد صيته فى العالم ، فطبق ذكره الآفاق ، وأخذ فى تفسير القرآن أيام الجمع فى المسجد من حفظه لا يتوقف ولا يتلعثم .

وكان للشيخ خبرة تامة بالرجال ، رواة الحديث وجرحهم وطبقاتهم ، ومعرفة بفنون الحديث ، وبالعالى والنازل ، والصحيح والسقيم ، مع حفظه لمتونه الذى انفرد به ،

وهو عجيب فى استحضاره ، واستخراج الحجج منه ، واليه المنتهى فى عزوه الى الكتب الستة والمسند ، بحيث أن يقال : ان كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث ، ولكن الاحاطة لله ، غير أنه يغترف فيه من بحر ، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقى ..

وأما التفسير ، فمسلم اليه ، وله فى استحضار الآيات للاستدلال بها قوة عجيبة ، ولفرط أمانته فى التفسير وعظمة اطلاعه ، بين خطأ كثير من أقوال المفسرين ، ويكتب فى اليوم والليلة — من التفسير أو من الفقه ، أو من الأصلين [1] أو من الرد على الفلاسفة والأوائل — نحوا من أربعة كراريس ، وما يبعد أن تصانيفه الى الآن تبلغ خمسمائة مجلد .

ويقول الحافظ الذهبى فى بعض ما ترجم به لابن تيمية « كان آية فى الذكاء وسرعة الادراك ، رأسا فى معرفة الكتاب والسنة ، بحرا فى التقلبات ، وأما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام ، فلا أعلم له فيه نظيرا ، وله باع طويل فى معرفة مذاهب الصحابة والتابعين ، وقل أن يتكلم فى مسألة الا ويذكر فيها مذاهب الأربعة ، وقد خالف الأربعة فى مسائل معروفة ، وصنف فيها ، واحتج بالكتاب والسنة ، وله الآن عدة سنين لا يفتى بمذهب معين ، بل بما قام عليه الدليل عنده » .

ويقول الامام السيوطى فيه « فوالله ما رمقت عينى أوسع علما ولا أقوى ذكاء من رجل يقال له « ابن تيمية » ،مع الزهد فى

---

(1) يقصد بهما : أصول الفقه ، وأصول الدين : أى علم الكلام .

المأكل والملبس والنســاء ومع القيام فى الحق ، والجهاد بكل ممكن » .

هذه أقوال بعض من ترجموا لابن تيمية من معاصريه ومن جاءوا بعده فى نشأته ودراسته وأكثر من ذلك سيجده القارىء الذى يريد أن يقف على هذا الجانب ، فليرجع الى : تاريخ ابن الوردى ، والحافظ شمس الدين الذهبى فى كتبه،وابن الألوسى فى جلاء العينين،وابن رجب فى طبقاته،وصلاح الدين بن شاكر الكتبى فى فوات الوفيات ، وابن العماد الحنبلى فى شذرات الذهب،كل هذه المراجع مبسوطة فيها الكثير عن دراسة ابن تيمية .

مكانته العلمية والفقهية :

تأهل الامام ابن تيمية منذ فجر شــبابه لوظائف التدريس والفتوى خلفا لوالده الذى كان يشغل هذه الوظائف .

ويتحدث الامام الذهبى عن مكانة ابن تيمية العلمية فيقول فى معجم شيوخه : شيخنا وشيخ الاسلام ، وفريد العصر علما ومعرفة ، وشجاعة وذكاء وتنويرا الهيا ، وكرما ونصحا للأمة ، وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر .

سمع الحديث وأكثر بنفسه من طلبه ، وكتب وخرج ونظر فى الرجال والطبقات ، وحصل ما لم يحصله غيره ، وبرع فى تفسير القرآن ، وغاص فى رقيق معانيه .. واستنبط منــه أشــياء لم يسبق اليها ، وبرع فى الحديث وحفظه ، فقل من يحفظ مايحفظه من الحديث ، معزوا الى أصوله وصحابته .

وفاق الناس فى معرفة الفقه ، واختلاف المذاهب ، وفتاوى

الصحابة والتابعين ، بحيث اذا أفتى لم يلتزم بمذهب ، بل يقول بما دليله عليه .

وأتقن العربية أصولا وفروعا وتدليلا واختلافا ، ونظر فى العقليات « الفلسفة وعلومها » وعرف اراء المتكلمين ، ورد عليهم ، ونبه على خطئهم وحذر منهم .

ونصر السنة بأوضح حجج وأبهر براهين ، وأوذى فى ذات الله من المخالفين ، وأضيف فى نشر السنة المحضة ، حتى أعلى الله مناره ، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له ، وكبت أعداءه ، وهدى به رجالا من أهل الملل والنحل .

وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالبا وعلى طاعته ، وأحيا به الله الشام ، بل والاسلام بعد أن كاد ينثلم لما أقبل حزب التتر والبغى فى خيلائهم .. ومحاسنه كثيرة ، وهو أكبر من ان ينبئه على سيرته مثلى ، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أنى ما رأيت بعينى مثله ، وأنه ما رأى مثل نفسه — راجع : ابن رجب ج ، ص ٣٨٩ — ٣٩٠ ، وشذرات الذهب ج ٦ ص ٨١ ، ٨٢

ويقول الشيخ فتح الدين بن سيد الناس عن ابن تيمية : أنه أحد الحفاظ المعروفين .. وأنه كان يستوعب السنن والآثار حفظا ، اذا تكلم فى التفسير فهو حامل رايته ، أو أفتى فى الفقه فهو مدرك غايته ، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه ورأيته ، أو حاضرا بالنحل والملل لم تر أوسع من نحلته فى ذلك ، ولا أرفع من درايته .

برز فى كل فن على أبناء جنسه ، ولم تر عين من رأى مثله ، ولا رأت عينه مثل نفسه ، الى آخر ما قال .. راجع : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٩ ـ ٥٠ .

ويقول الشيخ عماد الدين ، بعد أن يثنى عليه بكلام طويل جميل : فوالله ثم والله ثم والله ، لم ير تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية علما وعملا ، وحالا وخلقا واتباعا ، وكرما وحلما ، وقياما فى حق الله عند انتهاك حرماته ، أصدق الناس عقدا ، وأصحهم علما وحزما ، وأنفذهم وأعلاهم فى انتصار الحق وقيامه همة ، وأسخاهم كفا ، وأكملهم اتباعا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد حين سئل عن رأيه فى ابن تيمية ، بعد أن اجتمع به .. قال « رأيت رجلا سائر العلوم بين عينيه يأخذ ماشاء منها ويترك مايشاء ـ انظر : شذرات الذهب ج ٦ ص ٨٣ ـ

وقال عنه استاذ أئمة الجرح والتعديل ، أبى الحجاج المزى الحافظ الجليل ما رأيت مثله ، ولا أرى هو مثل نفسه ، وما رأيت أحدا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ، ولا أتبع لهما منه .

كما ترجم له: الزملكانى ، والذهبى ، والبرزالى بن عبدالهادى ، بالاجتهاد والتمكن فى أنواع العلوم والفنون ، وأثنوا عليه : بأنه لم يخلف بعده من يقاربه فى العلم والفضل ـ راجع : شذرات الذهب ج ٦ ص ٨٤ ـ

وغير هؤلاء ، أثنى عليه علماء وفقهاء ، بينوا مكانته الدينية ، وأوضحوا قدره وشأنه .

هكذا كان شيخ الاسلام احمد بن تيمية فذا فى عصره ، و ماما يقتدى به فى حياته وبعد مماته ، ونجما متألقا لم يصبه أفول منذ رأى الحياة حتى وافته المنية .. بل وحتى اليوم ، لم ير فى عصره مثله ، ولم ير هو أحدا مثل نفسه ، كما قيل عنه بحق بعض من ترجموا له .. وكان ومايزال بحرا زخارا بالعلم،فياضا بالمعرفة ، ارتوى منه معاصروه ، ويرتوى منه الناس من بعده فى كل جيل .. وفى كل زمان ومكان .

نظرة مجملة على المجتمع فى عصر ابن تيمية :

أوضحنا فى سطور سابقة ، حالة المجتمع فى العصر الذى عاش فيه ابن تيمية فى كل ناحية من نواحيه ، فى شىء من التوضيح والتفصيل .

وفى هذه السطور نعيد الكلام عن حالة ذلك المجتمع فى نظرة مجملة سريعة ، ليكون ذلك مدخلا لنا الى بيان جهوده وكفاحه ودوره العظيم فى معركة الاصلاح والخير والحق .

كان كل شىء فى ذلك العصر قد دب فيه الفساد وأصابه التغيير والانحراف ، وسرى فيه الجمود ، حتى أصبح المجتمع صورة بلا معنى ، وجسدا بلا روح .

كان المجتمع يموج بتيارات من الجنسيات المختلفة المتنافرة التى تعمل وفق تقاليدها وعاداتها الموروثة .. وكان الحكام يغلب عليهم الجهل ، وتروج عندهم الخرافة ، فاستعجمت — تبعا لذلك — الألسن والعقول والاخلاق والعادات والأنظمة والقوانين وغلبت الأفكار الدخيلة والعناصر الأجنبية على كل ما هو عربى

أو اسلامى ، وامتزجت علوم الدين بالفلسفة على يد المتأخرين من المتكلمين ، وفشت البدع والمحدثات وتغلغلت فى كل شىء من العقائد والعبادات وألوان السلوك ، ولاسيما فى مجال التصوف وما يتصل به من رموز واشارات ودعاوى وتلبيسات واصطناع للولاية ، وتحــد بالكرامات المزيفة ، وما يتبع ذلك من تعظيم قبور الموتى والفزع اليها فى قضاء الحاجات ، وتفريج الكربات، وغلبت على العلماء نزعة التقليد ، وتقاصرت هممهم عن الاحياء والتجديد والابتكار ، وبلغ بينهم التعصب المذهبى أقصى مداه ، فاستحالت المناظرات الى مهاترات وقام التكفير والتضليل مقام الاقناع بالدليل ، واختلت موازين البحث وقوانين النظر ، حتى استساغت العقول ألوانا من الكفر الشنيع لم تكن لتســيغها أصحابها لو استقام النظر وصح التفكير ، وذلك مثل عقيــدة « وحدة الوجود » التى نادى بها أحد المتصــوفة المعروفين ، وأقام عليها صرح فلسفته ومثل « نظرية الحلول » التى هتف بها « الحلاج » وهو من غلاة المتصوفة وجعلها مصــدر وحيه والهامه ، حتى أفتى العلماء بحل دمــه وغير ذلك كثير مما كان يزخر به العالم الاسلامى من ألوان الفساد،بسبب ضعف الوازع الدينى ، ونضوب معين الايمان ، وفقــر القلوب من الحيــوية الاسلامية ، تبعا للعصبيات كانتشار الفسق والفجور ، وانحلال الروابط الاجتماعية ، وفساد الأخلاق ، وظهور الفسق فى البيع والشراء ، واحتكار الأقوات ، وكثرة الاعتداء على الأعراض والأموال •

هكذا كان العالم الاسلامى فى عصر ابن تيمية •• كان أشبه بمريض أعضل داؤه ، وسرت العلة فى كيانه ، حتى أشرف على

الهلكة ما لم تتداركه رحمه الله ، وتهىء له من الأطباء المؤمنين بالله العارفين للعلاج والدواء من يرسم له سبيل الانقاذ ، ويصف له دواء الشفاء .

كان العالم الاسلامى فى حاجة الى رجل مصلح ، يصف له الدواء لانقاذه ، ويضع يده على مواطن العلة ..

وفعلا وجد العالم الاسلامى هذا الرجل المصلح فوضع يده على العلة ، فوجدها تكمن فى الانقسام والفرقة اللذين سببهما : البعد عن الكتاب والسنة ، ووجدها فى هذا الركام الهائل من المذاهب والأفكار والفلسفات الدخيلة التى لا ضابط لها ، ولا تتصل من الاسلام بسبب ولا نسب .

ووجدها فى هذا الجمود الذى عطل المواهب ، وشل حركة الفكر ، وأزرى بقمة العقل ، وحط من كرامة الانسان حتى رضى أن يكون كالسائمة ، تنقاد بلا وعى ولا فكر ولا تدبر .

ووجدها فى هذا التعصب الأعمى لمذاهب المتقدمين ، والمبالغة فى تقديسها الى الحد الذى حجب عن الأنظار عيوبها ، وأخفى عن الناظرين مأخذها ، وستر عن الأفئدة مساوئها .

وجدها فى ذلك وغيره من ألوان الضعف التى تنتاب الأمم فى بعض فترات حياتها ، فتهون على نفسها ، وترضى بالدون من كل شىء ، وتستنيم للامانى ، وتستلم للهزيمة، وتتلمس المعاذير لتبرير الفشل ، وتقف باردة بازاء الأحداث الكبرى كأنها ألواح الثلج ، فلا ينبض فيها قلب بعاطفة ، ولا يتحرك فيها عقل بفكره ، ولا تنهض فيها عزيمة لعمل .

كان العالم الاسلامى فى حاجة الى صيحة النذير الى تصرخ به ليفيق ، والى الفكرة الهادية التى تسدد على الطريق ، والى النظرة الناقدة التى تميز له الزيف من الجيد ، وتكشف له الباطل المطلى بالزخارف ، حتى لا يخدعه البهرج ، ويغره البريق •

وكان فى حاجة الى القلم الحر الذى لا يكتب عن املاء الآخرين ، ويتحرك باشارة الآمرين ، واللسان المقول الذى لا يقنع بالمحاكاة والتقليد والترديد لعبارات المتقدمين •• قلم ولسان يملكان القدرة على دحض كل باطل ، ورد كل فرية ، وكشف كل زيف ، كما يملكان القدرة على الاحياء والتجديد لما درس من معالم الحق، وانطمس من سنن الهدى ، ويرجعان بالناس سيرة أسلافهم فى العلم والعمل ، حتى يعود لهم ماغرب من مجد وسلطان ، وما ضاع من مكنة وغلبة ، ويزول عنهم ماهم فيه من ذل وهوان •

وكان فى حاجة الى من يقف أمام هذه العدو المستبد الذى غزا البلاد بطغيانه وجبروته وظلمه بدافع الطمع والسيطرة •

كان فى حاجة الى من يقف أمام هذا العدو المتربص ، يشهرفى وجهه سيف الحق ، يناضل ويكافح ضد العدو ، ويحمى وطنه الاسلامى ، ويزود عن حمى دياره العربية من أن يغتصبها غاصب ، وأن يسيطر عليها ظالم مستبد •

كان المجتمع فى حاجة الى هذا الرجل الذى يملك : السيف •• والقلم •• واللسان •

هذا الرجل .. هو ابن تيمية :

وقد تمثل ذلك كله فى شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله .

ولا ننكر — والحق يقال — أنه قد ظهر قبل ابن تيمية علماء أحرار ، ومفكرون سلفيون ، لم تأخذهم فى الله رغبة ولا رهبة ، ولم يثنهم عن قولة الحق ارعاد أو وعيد ، وسجل لهم التاريخ بريشته الذهبية مواقف بطولية رائعة تدل على مدى اعتزازهم بالعلم ، وحرصهم على القيام بما ألقى على كواهلهم من واجب الدفاع عن الدين ، والحفاظ على مبادئه وعقائده السلفية من أن تعبث بها يد مضللة مغرضة ، أو تغير منها نفس منحرفة ، مثل الامام النووى ، والعز بن عبد السلام ، وابن دقيق العيد ، وكثيرون غيرهم ، لكن أحدا من هؤلاء لم ينهض بما نهض به ابن تيمية من أعباء ، ولم يتحمل مثل ما تحمله من محن وأرزاء فقد أثار اخلاصه للحق ، وجرأته فى النقد وقدرته فى الهجوم .. أثار كل ذلك عليه العداوات من كل جانب .. ثار عليه الفقهاء والمتكلمون والمتصوفة ، ورموه عن قوس واحدة ، وأغروا به العامة ورجال الدولة ، فما رجف له قلب ، وما اهتزت له مشاعر ، ولا جف له قلم ، ولا كف له لسان ، بل ظل ماضيا فى طريق الاصلاح التى اختطه لنفسه فى هذه السبيل ، حتى وافته منيته وهو سجين بقلعة دمشق بعد حياة حافلة بأكرم التضحيات ، مزدحمة بأشرف الكفاح ، مليئة بأرفع أوسمة البطولات .

ابن تيمية المدافع عن الوطن :

كان ابن تيمية ، عالما بأن الجهاد فى سبيل الله والوطن من أفضل القربات الى الله ، وأنه فرض على القادر عليه بنفسه

وماله موقنا بأن الله تعالى لا يضيع أجر المجاهدين العاملين ، وأنه تعالى فضل المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما .

وكان ابن تيمية واحدا من أولئك الأفذاذ الذين بلغوا شـأوا بعيدا فى كل من ميـدانى العلم والعمل ، فكما أنه « رب قلم ولسان » هو أيضا « رب سيف » وان كانت شـهرته العلمية قد غطت الى حد كبير على الناحية العملية ، وشـهرته من هذه الناحية لا يعرفها الا القليل ممن درسوا حياته ، وعاشوا معه كل أيام محنته ، ورأوا عظيم ابلائه فى كل ما خاضه من معارك واقتحمه من خطوب .

لم يكن ابن تيمية يعيش فى برج عاجى منطويا على نفسـه، منفصلا عن مجتمعه ، بل كان عظيم التجـاوب معه ، شـديد الاحساس بما يجب عليه من المشاركة الايجـابية فى اسعاده ، واصلاح حاله .

جهاده ضد التتـار :

لم يتردد ابن تيمية فى أن يكون فى طليعة المجاهدين للتتـار بنفسه .. هؤلاء الذين اقتحموا ديـار الشام كالطوفـان ، أو كسيل عرم . هؤلاء الذين لا ترتبط بهم صـلة بالعـروبة أو الاسلام صلة جنس أو عقيدة .. الذين كانوا يرون أنـه لن تقف أمة أو دولة أو قـوة أمامهم فى أى بلد من بلاد العـالم كله .

فى هذا المجال .. مجال الدفاع عن شرف الاسلام وكرامـة العروبة ، يظهر الامام المجاهد ابن تيمية بايمانه وعزمه وسيفه

.. يظهر مجاهـدا فى سبيل الله ، ومدافعـا عن حمى دينـه وشريعته ومبادئه الخالدة السامية .

فعندما زحف التتار بجحافلهم على الشـام ، دب الذعـر فى نفوس الأهالى ، وتملكهم فزع شـديد ، وأخذ الناس يبحثون عن مهرب من الشر التتارى الزاحف عليهم .. أخذوا يهربون التماسا للنجاة بأنفسهم تاركين البلاد ينهبها العدو ، لكن ابن تيمية هاله الأمر ، فنهض للقيام بعبء الدفاع عن حاضرة الاسلام . فكان يخطب فى جماهير الناس ، يوصـيهم بالصبر والثبات ، ويحضهم على الجهاد والانفـاق ، ويحثهم على التصدى للعدو للحفاظ على كيان الأمة الاسلامية ومقدساتها ، وكان يرسـل رجالا من أتباعه للقيام بحراسة مداخل المـدينة للحيلولة دون فرار ضعفاء الايمان والجبنـاء من الفرار ، خوفـا من بطش التتار ، ثم يخرج ابن تيمية مع بعض المشايخ والأعيان لمقابلة ملك التتار ، ليأخذوا منه الأمان لأهل دمشق ، فيتولى ابن تيمية بنفسه الكلام معه ، ويغلظ له القول ، حتى ظن من كان معـه من الأعيان والعلماء أنه سيقتل ، وكانت تلك المقابلة ـ كما يشير المؤرخون ـ عـام ٦٩٩ ، كما يشـيرون أن شجاعة الامـام ابن تيمية كانت مضرب الأمثال ، وشـبهها بعضهم : بشجاعة أكابر الأبطال ، وكان « سيف الدين قبجق المنصورى » يتعجب من اقدام ابن تيمية على المغول .

ويقول القـاضى شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فضـل الله فى ترجمته : جلس الشـيخ الى السلطان « غازان » حيث تجم الأسود فى آجامها ، وتسقط القلوب داخل أجسامهـا ..

خوفا من ذلك السبع المغتال ، والنمرود المحتال ، والأجل الذى لا يدفع بحيلة محتال .

جلس اليــه ، وأومأ بيده الى صــدره ، وواجهه ، ودرأ فى نحره ، وطلب منه الدعاء ، فرفع يدية ودعا له دعاء منصف أكثر عليه ، وغازان يؤمن على دعائه ــ راجع فى هذا : تاريخ الوردى ج ٢ ص ٢٨٧ ــ ٢٨٨ ، ابن كثير ج ١٤ ص ٧ ــ « وقد تم ذلك الحديث بواسطة ترجمان » .

ولما أعاد التتار العدوان على الشــام سنة ٧٠٠ ، وهددوا دمشق مرة أخرى،وأصبح الناس مابين هارب،أو بين من لايجد مفرا من الاستسلام ، خرج الشيخ فى مستهل جمادى الأولى وركب الى مصر لمقابلة السلطان الناصر ، فكلمه كلاما شديدا يستحثه أن يأتى بالجيش لانقاذ الشــام ، وفى القاهرة قال له فيما قال : « ان كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته ، أقمنا له سلطانا يحوطه ويحميه ويستغله فى زمن الأمن » ، ثم استطرد يقول « لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه ، واستنصركم أهله ، وجب عليكم النصر ، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه ، وهم رعاياكم ، وأنتم مسئولون عنهم ؟ ! » .

فخرج الجيش الى الشام ، وكان ابن تيمية يحث المقــاتلين ويبشرهم بالنصر والظفر ــ راجع فى هــذا : البداية والنهــاية لابن كثير ج ٤ ص ١٥ .

ويصف ابن رجب سفر الشيخ الى مصر ، ونجاحه فى اقناع السلطان بالخروج الى الشام لملاقاة التتار فيقول : « وقد سافر الشيخ على البريد الى الديار المصرية يستنفر السلطان ، وقابل

له : ان تخليتم عن الشام ونصرة أهله ، والذب عنهم ، فان الله تعالى يقيم لهم من ينصرهم غيركم ، ويستبدل بكم سواكم » وتلا عليه قوله تعالى (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) وقوله تعالى (الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا) •

وبلغ ذلك الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ، وكان هو القاضى حينئذ ، فاستحسن ذلك وأعجبه هذا الاستنباط ، وتعجب من مواجهة الشيخ للسلطان بمثل هذا الكلام — راجع : الطبقات ج ، ص ٣٩٥ — ٣٩٦ ، فوات الوفيات ج ١ ص ٥١ ، وشذرات الذهب ج ٥ ص ٤٥٥ ، حوادث عام ٧٠٠

ولم يكتف الشيخ بالعمل الدائب على تحريض الناس والسلطان والأمراء فى مصر والشام على القتال سنة ٧٠٢ يتقدم بنفسه الى الميدان فى واقعة « شقحب » التى جمع فيها التتار جموعهم ، واستعدوا لها بكل قواهم •• انه يلقى بنفسه فى تلك المعركة ، فيقاتل العدو مع جماعة من أصحابه ، وانتهت المعركة بنصر الله ، وقتل فيها عدد كبير جدا من التتار ، واطمأنت قلوب المسلمين بهذا النصر العظيم الذى جاء لهم من الله ، وأقبل الناس على الشيخ يهنئونه ، ويدعون له بالتوفيق والسداد ، أن حقق الله على يديه الخير •

ويذكر ابن كثير فى البداية والنهاية : بأن العسكر الشامى ندبه الى السير الى السلطان ، يستحثه على السير الى دمشق بعد أن كاد يرجع الى مصر ، ففعل ذلك وجاء هو واياه الى المدينة ، ثم سأله السلطان أن يقف معه فى المعركة ، فقال :

السـنة أن يقف الرجل تحت قومه ، ونحن من جيش الشـام لا نقف الا معهم •

ثم أخـذ يستحث السلطان على القتـال ، ويبشره بالنصر ، وجعل يحلف بالله الذى لا اله الا هو أنكم لمنصورون عليهم ، فيقول له الأمراء : قل ان شـاء الله ، فيقول : ان شـاء الله تحقيقا لا تعليقـا •

هكذا كانت الثقة تملأوجدان وقلب ابن تيمية ، يتفضل بها الله عليه ، ثم تفيض على كل من حوله من المجاهدين المقاتلين •• انها ثقة مؤمن صادق الايمان بربه القوى الذى ينصر من يتجه اليه وقت اليسر والعسر ، والله تعالى لن يخلف وعده ، وهو الذى وعد المؤمنين فى كتابه العزيز بالنصر فقال تعـالى (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا) •

ثم ننتقل الى أثر الشيخ فى هذا الجهاد فنقول : ان التاريخ والواقع ليشهدان أن أثر الشيخ كان كبيرا وفعالا فى نـاحية الجهـاد ••

رأينا كيف كان سعيه المشـكور فى حث الناس على الجهـاد ضد التتار •• ثم خطاباته الحماسية لاثارة الجمـاهير •• ثم سعيه لجمع جيشى مصر والشام فى ميدان واحد •• ثم حديثه مع السلطان والأمراء على الثبات للعدو ولقائه فى قوة واتحاد •• ثم اصراره على عدم التسليم ومواجهة العدو •

كان كل ذلك له أثر حميد عمل على جلب النصر للمسـلمين ، وانزال الهزيمة الساحقة بالتتار فى أكثر من موقعة •

ان الله تعالى أنقذ الشام .. بل الاسلام من أيدى التتار البغاة على يد الشيخ ابن تيمية العظيم ، فقد جاء المغول بقوى الشر وبخيلائهم ، فذهب الظن بالمقاتلين المسلمين كل مذهب ، وزلزلوا واشرأبت الأعناق ، وملأ الصياح الآفاق .

وكان من فضل الله تعالى أن وفق قلوب الناس والأمراء على طاعة الشيخ والانقياد له فى أغلب الأحيان ، اذ أن تأثيره عليهم كان قويا عظيما .

كانت أحاديثه العظيمة عن الجهاد زادا قويا وحافزا له قوة تأثيره ، كما كان يتمتع بتكوين جسمى وعقلى يجعلانه صاحب هيبة وكلمة مسموعة ، فان كل الذين رأوه ووصفوه ، ذكروا أنه كان يجهر بالحق ، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ذا سطوة واقدام ، لا يعرف المداراة والنفاق والالتواء ، وكان أبيض شديد سواد الرأس واللحية ، قليل الشيب ، شعره الى شحمتى أذنيه ، عيناه لسانان ناطقتان بالحق ، ربعة بين الرجال ، جهورى الصوت ، فصيح اللسان ، صاحب ذكاء وقاد، وسيلان فى الذهن

كل هذه الصفات والميزات التى وجدت فى الشيخ ، كان لها تأثير قوى فى الناس ، فأدى ذلك الى نصر جيش المسلمين ، واعزاز الاسلام ، ورفع رايتهم .

وفى مجال النضال باليد والنفس ، نذكر بلاءه فى حرب الرافضة ، أهل جبل كروان ، الذين كانوا يرتكبون أنواعا من الفساد .

كذلك نذكر بلاءه فى محاربة البدع والضـلالات التى كانت شائعة فى عصره ، فلم يكن يكتف بالخطب وتحـرير الرسـائل والبعد عنها ، وانما كان كثيرا ما يشـارك فى ازالتها بيده مـع الاستعانة فى ذلك بأتباعه المخلصين ، وفى هذا يقول خادمـه الشيخ ابراهيم الغيانى :

« فبلغ الشيخ أن جميع ما ذكرمن البدع يتعمدهـا الناس عند العمود المخلق فى داخل البـاب الصغير ، فشـد عليه ذلك وقام واستخار الله فى الخروج الى كسره ، فسمع الناس أن الشيخ يخرج لكسر العمود المخلق ، فاجتمع خلق كثير معـه ، ولكنهم ما ان وصلوا عنده حتى انخذل أغلبهم ، ورجعوا خشية أن ينالهم منه شىء ... وتقدم الشـيخ وأخـوه شرف الدين وصاحا بالحجارين : دونكم هذا الصـنم ، فما جسر أحد منهم أن يتقدم اليه ، فأخذا منهم المعاول وضربا فيه وهما يتلوان قول الله تعالى (جا ءالحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا) .

كما يذكر ابن كثير فى حوادث سنة ٦٩٩ أنه فى السابع عشر من رجب دار الشـيخ تقى الدين رحمـه الله وأصـحابه على الخمارات والحانات ، فكسروا أوانى الخمور وأراقوها،وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش ، ففرح الناس بذلك .

وهذا قليل من كثير أردنا أن نعرف به مدى عناية ابن تيمية بالنواحى العملية ، وأن الشيخ كان يؤمن أن واجب العـالم المجتهد لا يجب أن يقف عند حـد التبليغ والبيان فقط ، كما فعل بعض معاصروه ، أو الذين اكتفوا منهم بمقـابلة المنـكر بانكاره بالقلب ، وهذا أضعف الايمان .

الباب الثانى

منهاجه وتطبيقاته

منهاجه فى تفسيره للقرآن

منهاج القرآن والسنة :

كثير من العلماء يعلنون أنهم يعملون من أجل الحق ، ولا يبحثون الا عن الحق ، لكنهم مع هذا يختلفون فى مسألة أو أكثر ، بسبب اختلافهم فيما يسيرون عليه من مناهج شتى .

لكن الشيخ ابن تيمية كان فى آرائه وعقيدته يسير حسب منهج واحد لم يحد عنه ، لأنه آمن بهذا المنهاج ايمانا لا يتزعزع عنه .

اعتمد ابن تيمية على كتاب الله المنزل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أما أحاديث الرسول ، فهى المأخوذة من السنة المطهرة التى وصف الله صاحبها بأنه (لا ينطق عن الهوى) ومن سار على هذا السبيل « سبيل الكتاب والسنة » لا يمكن أن يضل ولا يزيغ ، وقد قال الله تعالى فى هذين المصدرين « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول » .

واذن ، فان أصول الفقه والتشريع عند ابن تيمية هما : كتاب الله أنزله على نبيه الكريم ، وسنة مطهره فسربهاصاحبها المعصوم ما أنزل عليه من السماء بأمر من ربه ، بقوله تعالى

(يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) •

ومع اعتقاده بأن « الكتاب والسنة » هما أصول الفقه والتشريع ، وهما منابع الاعتقاد والعبادة ، نراه يعتقد كذلك فى « الاجماع والقياس » ويؤمن بهما على أنهما من أصول الفقه والعبادة، فنجده يردها الى الكتاب والسنة ، فكل أمر صحيح جاء فى الاجماع لابد وأن يوافق الكتاب والسنة ، ونراه يقول فى رسالة[1] له بشأن الاجماع « •• وأن الاجماع — اجماع الأمة — حق ، فانها لا تجتمع على ضلاله » •

كذلك يرى ابن تيمية أن القياس الصحيح هو ما وافق الكتاب والسنة •

كما يشير ابن تيمية فى غير الفقه وأصوله على نفس المنهج « منهج القرآن والسنة » وما صح عنده من أقوال الصحابة والتابعين وآرائهم •

العقل عنده كمنهاج :

ومع تمسك ابن تيمية بالقرآن والسنة ، وآثار الصحابة والتابعين لهم منهاجا له فى آرائه وعقيدته وبحوثه ، وجعل ذلك مستندا وحيدا فى كل ما يصدر عنه •• انه مع ذلك احترم العقل ، وقدر له حقه ، فانه مما لا ريب فيه ، أن فهم كتاب

---

(١) راجع رسالته المسماة « معارج الوصول الى معرفة ان أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول » .

الله وسنة نبيه ، الفهم الواعى العميق ، يحتاج الى قلب يتدبر وعقل يفكر ، يغوص صاحبه فى معانى القرآن والسنة ، وبما صح من الاجماع ، فيستنبط منها الحكم الشرعى الصحيح ، والأمر الاسلامى السليم .

كان ابن تيمية يعرف للعقل قيمته ، ويدرك له مجاله ، فلم يطلق له العنان يصول ويجول أكثر من القدر اللازم ، ليطغى بتفكيره على نصوص القرآن والسنة ، كما أنه لا يغفل حقه فى التفكير ، ولم يمهل شأنه الى القدر الذى يعطله عن ممارسة وظيفته التى خلقه الله لها ، فالله تعالى امتدح العقل ، ورفع من شأنه فى كثير من آيات القرآن ، وطلب منا أن نعمل العقل فى الأمور الدينية ، وفهم آياته ، ومعرفة نعمه ، واستخدامه فى الوصول الى الايمان به كاله خالق رازق مدبر بيده كل شىء فى هذا العالم ، مستحق لأن يعبده الانسان رغبة ورهبة ، ولأن تعنوا له وجوه العباد ذلا وطاعة وانقيادا ومسكنه .

وفى كثير من آيات القرآن ، نجد أنها ختمت بما يدل على احترام القرآن للعقل ، ورفع شأنه ، فقال تعالى (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) (وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون).

والأيات التى تمجد العقل ، وتذكر مكانته فى حياة الانسان كثيرة جدا يضيق المقام هنا عن حصرها .

وابن تيمية له كتاب صغير سماه « أصول التفسير » بين فيه المنهج الذى يجب أن يسلكه المفسر فى تفسيره ، فبدأ كتابه ببيان

مبلغ عناية الصحابة والتابعين بمعنى القرآن ، كما ذكر فيه أن الرسول بين لهم هذه المعانى ، كما بلغهم ألفاظه ونصه الكريم ، فان قوله تعالى (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) يتناول هذا وهذا .

وكانت طريقتهم فى تعلم القرآن ، هى السبب فى بلـوغهم درجة معرفة معانيه ، فقد قال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن — كعثمان بن عفان ، وعبد الله ابن مسعود وغيرهما — انهم كانوا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر ايات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ، ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة .

ثم يقول الشيخ : وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا فى فن من العلم،كالطب والحسلب دون أن يستشرحوه،فكيف بكتاب الله الذى هو عصمتهم ، وفيه نجاتهم وسـعادتهم ، وقيـام دينهم ودنياهم ! . ولهذا كان النزاع بين الصحابة قليلا جدا ، وهو وان كان فى التـابعين أكثر منه فى الصـحابة ، فهو قليل بالنسبة الى ما بعدهم .

ومن التابعين من تلقى جميع التفسـير عن الصحابة كما قال مجاهد(١) :

« عرضت المصـحف على ابن عباس أوقفه عنـد كل آية وأسأله عنها » .

---

(١) هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكى ، المتوفى سـنة ١٠٢ بمكة .

والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة ، كما تلقوا عنهم علم السنة ، وان كانوا قد يتكلمون فى بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، كما كانوا يتكلمون فى بعض السنن بالاستنباط والاستدلال .

ومنهاج ابن تيمية — كما بينه فى كتابة « أصول التفسير » يقوم على الأصول التالية :

١ — تفسير القرآن بالقرآن ، وهى أحسن طرق التفسير وأعلاها مرتبة ، فان ما أجمل فى مكان قد فسر وبين فى موضع آخر ، وما أختصر فى مكان قد بسط فى موضع آخر .

٢ — فان أعيانا أن نجد تفسيرا لبعض آيات القرآن فيه ، فعلينا بالمرتبة الثانية لتفسيره ، وهى سنة الرسول ، فانها شارحة للقرآن وموضحة له ، وفى هذا يقول الله (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) .

ولهذا قال رسول الله « ألا وانى أوتيت القرآن ومثله[1] معه »

٣ — فان لم نجد تفسيرا لما نريد لافى القرآن ولافى السنة، كانت المرتبة الثالثة هى تفسيره بأقوال الصحابة ، فانهم أدرى بذلك ، لما شاهدوه من القرآن والأحوال التى اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح ، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة « الخلفاء الراشدين » ، والأئمة

---

(١) ومثله : أى « السنة النبوية » .

المهديين ، ومنهم « عبد الله بن مسعود » ، والحبر « عبد الله ابن عباس » .

وابن مسعود هو الذى يقول كما رواه ابن جرير الطبرى فى تفسيره « والله الذى لا اله غيره ما نزلت آية من كتاب الله الا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحـد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايـا لأتيته ــ راجع تفسـير الطبرى ج ١ ص ٢٨ طبعة بولاق ، ج ١ ص ٨٠ طبعة دار المعارف ــ

وابن عباس هو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله له اذ قال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » ويقول عنه ابن مسعود فيمـا رواه الطبرى « نعم ترجمان القرآن ابن عباس » .

٤ ــ وبعد مرتبة تفسير القرآن به أو بالسـنة أو بأقوال الصحابة ، تأتى مرتبة تفسيره بأقوال التابعين ، فيقول « ان لم نجد لأحد من الصحابة قولا فيما نريد تفسيره من كتاب الله ــ مثل مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعـكرمة مولى ابن عباس وعطاء بن أبى رباح ، والحسن البصرى ، وغيرهم من رجـال العلم بكتاب الله ومعانيه ، والذين استفادوا علمهم من الصحابة رضى الله عنهم .

وحين يأخذ الشيخ من أقوال التابعين ، لا يعتمد كل ما نسب الى التـابعين من الاقوال فى تفسير القرآن ، وهو لهـذا يقول « اذ لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ، ولا وجدته فى أقوال الصحابة ، فقد رجع كثير من : الأئمة فى ذلك الى أقـوال التابعين كمجاهد ، فانه كان آية فى التفسير .

ثم يتكلم عن اتفاق أقوال التابعين فى التفسير ، وكون ذلك حجة ، ثم اختلاف آرائهم فيقول « أما اذا اجتمعوا على الشىء، فلا يرتاب فى كونه حجة ، فان اختلفوا ، فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم ، ويرجع فى ذلك الى لغة القرآن أو السنة ، أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة .

من هذا المنهج الذى عرفه ابن تيمية ، وسار عليه فى التفسير، يتضح لنا أنه كان سلفى فى هذا المجال ، وكذلك كان شأنه فى سائر العلوم التى اشتغل بها ، فهو لا يعتمد التفسير الذى يقوم على الرأى وحده ، ولا يستند الى حديث أو قول مأثور ، ولذلك نجده يقول « فأما تفسير القرآن بمجرد الرأى فحرام .. ويؤيد كلامه هذا بالاحاديث والآثار التالية : —

١ — عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » .

٢ — عن جندب أنه قال : من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ ..

٣ — عن معمر أن أبا بكر الصديق قال : أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى اذا قلت فى كتاب الله مالم أعلم ؟.

٤ — قال عبد الله بن عمر : أدركت فقهاء المدينة ، وانهم ليعظمون القول فى التفسير ، منهم » سالم بن عبد الله ، والقاسم ابن محمد ، وسعيد بن المسيب ، ونافع » .

ثم يقول ابن تيمية فى ختام مقدمته فى كتابه « أصول التفسير» بعد أن ذكر آثارا كثيرة « فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها

عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام فى التفسير بما لا علم لهم به ، فأما من يتكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه ، ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال فى التفسير ، ولا منافاة ، لأنهم تكلموا فيما علموه ، وسكتوا عما جهلـوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد .. فانه كما يجب السكوت عما لا علم للمتكلم به ، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه ، ممـا يعلمه لقوله تعالى (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) ولمـا جاء فى الحديث المروى من طرق « من سئل عن علم فكتمه ، ألجم يوم القيامة بلجـام من نار » .

وينقل عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله : التفسـير على أربعة أوجه ، وجه تعرفه العرب من كلامها — وتفسير لا يعذر أحد بجهالته — وتفسير يعلمه العلماء — وتفسير لا يعلمه الا الله .. والله سبحانه وتعالى أعلم .

على أن الشـيخ ابن تيميـة لم يكن بدعا فى منهجـه الذى وضعه وطبقه فى التفسير ، فان كثيرا غـيره من مفسرى كتاب الله ، ساروا على مثل ما سـار هو عليه فى تفسير القـرآن بالقرآن .. ثم بالسنة . .ثم بأقوال الصحابة .. ثم بأقوال التابعين ، يأخذون منها ما يصح عندهم ويرتضـونه ، وهـذا ما يعرف بالتفسير المأثور .

على أن الذى يجب الا نغفل عنه ، أن الشيخ ابن تيمية كان له فهم عميق فى معرفة القرآن ، وما يتضمنه من أسرار وحكم ، كان يستنبط منها التشريع ، ويتعرف على غاياتها وأهدافهـا ، وذلك باعمال عقله وفكره ..

وليس معنى أنـــه كان يعمل عقله وفـكره فى فهم معـانى القرآن ، أنه كان يسير سيرا مطلقا عليه ، على منهج المعتزلة والشـيعة والرافضة والفلاسفة فى تفسير القرآن ، فان هؤلاء اعتقدوا فى معانى وآمنوا بها ، ثم أرادوا تطويع ألفاظ القرآن لما فهموا من المعانى ، فكان أن أوقعهم هذا المنهج الذى ساروا عليه فى متاهات ونهاية لا آخر لها ..

نقول : ليس معنى هذا أنه كان يفعل ما فعلته هذه الفـرق من الاعتداد المطلق بالعقـل .. بل انه لا يطلق له العنان فى تفسير القرآن ، بل كان يستعمله بالقدر اللازم ، ولا يتـركه يصول ويجـول أكثر من القدر اللازم ، ومع اعتداده بالعقـل بهذا القدر اللازم ، فقد كان شديد الحملة فى صدق وقوة على تفاسـير هذه الطرق الضالة التى احترمت العقل أكثر من اللازم واعتدت به اعتدادا مطلقا فى فهمها للقرآن .

ومن تفاسير فرق « الشيعة والرافضة » للقرآن نأتى بهـذه الأمثلة ، فهم يقولون فى قوله تعالى (تبت يدا أبى لهب) أن المقصود : هما أبو بكر وعمر ، و (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) أن المقصـود بالبقرة : عائشـة ، و (مرج البحرين يلتقيان) هما : عليا وفاطمة والمقصود بقوله تعـالى (اللؤلؤ والمرجان) الحسن والحسين .

لقد هاجم الشيخ ابن تيمية ، هذه التفاسير المنحرفة وقال عنها فى سـياق هجومه « وفى الجملة ، من عـدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم الى ما يخالف ذلك ، كان مخطئا فى ذلك ، بل مبتدعا .. » .

حديث عن تفاسيره للقرآن :

ان ما عثر عليه من تفسير لابن تيمية ، يشهد له بأنه بلغ فى هذا الفن شأوا لا يدرك ، وان كان لم يضع تفسيرا شاملا للقرآن على نحو ما فعل بعض الفقهاء من المفسرين ، لكن ما فسره بالفعل يزيد كثيرا على ما عثر عليه حتى الآن ، فقد ذكر ابن عبدالهادى فى العقود الدرية : أنه جمع من أقوال مفسرى السلف أكثر من ثلاثين مجلدا ، وقد بيضه بعض أصحابه ، ولكن كثيرا منه لم يكتب بعد موته ، وحكى عن أبى عبد الله بن رشيق — وكان من أخص أصحاب ابن تيمية وأكثرهم كتابة لكلامه — : أنه كتب الى الشيخ وهو فى محبسه بالقلعة ، أن يكتب على جميع القرآن تفسيرا مرتبا على السور ، وأن الشيخ كتب اليه يقول « ان القرآن فيه ما هو بين بنفسه ، وفيه ما قد بينه المفسرون فى غير كتاب ، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء ، فربما يطالع الانسان عليها عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها ، وربما كتب المصنف الواحد فى آية تفسيرا ، ويفسر غيرها بنظيره ، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل ، لأنه أهم من غيره واذا تبين معنى آية ، تبين معانى نظائرها ».

وكان يكتب وهو فى محبسه أيضا ، يقول « قد فتح الله على فى هذه المرة — أى مرات الاعتقال والسجن — من معانى القرآن ، ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها ، وندمت على تضييع أكثر أوقاتى فى غير معانى القرآن أو نحو ذلك » — راجع : العقود الدرية ص ٢٧ — ٢٨ .

ويبدو أن مصير هذا التفسير الذى كتبه الشيخ فى سجنه لم

يعلم ، وأغلب الظن أنه ضـــاع ، ويقال : ان بعض العاملين فى حقل الدين من محبى شيخ الاسلام ابن تيمية قد عثر على قدر من القرآن الذى كان ضائعا ، وجمعه وصححه ، وقد طبع من تفسيره حتى الآن مجلدان ، أحدهما فى تفسير سورة الصمد ، والآخر فى تفسير سورة النور .

ومن السور التى تناولها فى تفاسيره نأتى بهـذه الســور كنموذج للتعريف بتفسيره وتطبيقاته .

تطبيقـــاته

فى تفســير القرآن

(١) سورة الأعلى

يقول فى تفسير هذه الســورة « الأعلى : على وزن أفعـل التفضيل مثل : الأكرم والأكبر والأجل ، ولهذا لما قال أبوسفيان بعد غزوة أحد : أعل هبل .. أعل هبل .. قال النبى صلى الله عليه وسلم « ألا تجيبونه » ؟ قالوا : وماذا نقـول ؟ . قال « قولوا : الله أعلى وأجل » .

ثم مضى فى بيان الفرق بين العلو والكبرياء والعظمة فيقول « ان هذه الصفات وان كانت متقاربة ، بل متلازمة ، فبينهمـ فروق لطيفة ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه تعـالى « العظمـة ازارى ، والـكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحدا عذبته » فجعل الـكبرياء بمنزلة الرداء ، وهو أعلى من الازار .

ولهذا كانت شعائر الصلاة والآذان والأعياد والأماكن العالية، هو : التكبير ، وهو أحد الكلمات التى هى أفضل الكلام بعد القرآن ، وهذه الكلمات هى « سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر » ، كما ثبت ذلك فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم •

وبشأن التسبيح فى الركوع والسجود ، وواجب هو أم مستحب ، ذكر اختلاف مذاهب الفقهاء فى هذا ، ثم ذكر ان « الوجوب » هو المشهور عند الامام أحمد وغيره ، وأن « المستحب » هو المشهور عند الامامين أبى حنيفة والشافعى، ثم بين أن الأقوى أن يكون التسبيح بلفظ « سبحان الله » أو بلفظ « سبحانك » ونحو ذلك •

ثم يقول عن التسبيح أيضا : ان القرآن سماها — أى الصلاة — تسبيحا ، فدل على وجوب التسبيح فيها ، وقد بينت السنة أن محل ذلك : الركوع والسجود ، كما سماها قياما ، وقد بينت السنة أن محل ذلك : القيام وسماها القرآن سجودا وركوعا •

ثم بين بعد هذا ، أن ما نقل عن الامام مالك من كراهة المداومة على التسبيح فى الصلاة ، ينبغى أن يصرف الى المداومة على صيغة معينة منه مثل « سبحان ربى العظيم » حتى لايظن أن الواجب هو صيغة معينة ، دون وجوب جنس التسبيح ، فان أدلة وجوبه فى الكتاب والسنة كثيرة جدا ، وقد علم أنه صلى الله عليه وسلم كان يداوم على التسبيح بألفاظ متنوعة •

والله هو الأعلى بكل ما لهذه الكلمة الجامعة من معنى ومدلول،

كما يذكر الشيخ أن الله على كل شيء قدير ، بمعنى أنه قادر عليه ، قاهر له ، متصرف فيه ، ويدخل فى معنى كونه «الأعلى» أيضا ، أنه متعال عن كل عيب ونقص ، وعن اتخاذه شريكا وولدا له ، ولهذا يقول جل شأنه للمشركين (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولا عظيما ، ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم الا نفورا ، قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) •

والشيخ يرى أيضا أن التسبيح يقتضى اثبات المحامد التى يحمد عليها ، فيقتضى ذلك تنزيهه وتحميده وتكبيره وتوحيده •

سأل رجل ميمون بن مهران عن (سبحان الله) فقال : اسم يعظم الله به ويحاشى به عن السوء •• وتنزيه الله نفسه عن السوء ، كما جاء فى هذا الأثر ، وفى قول لابن عباس وفى حديث مرسل : يقتضى تنزيهه عن فعل السيئات ، وعن كل صفة من الصفات المذمومة •

ثم يمضى الشيخ فى تفسير تتمة الآية الأولى من السورة على هذا النحو الواضح الدقيق •

ثم ينتقل الى تفسير الآيتين: الثانية والثالثة، فيقول فى تفسير الآية الثانية وهى قوله تعالى (الذى خلق فسوى) فأطلق الخلق والتسوية ، على كل المخلوقات ولم يخص بذلك الانسان ، كما أطلق قوله (والذى قدر فهدى) فلم يقيده[1] ، فكان هذا

(١) أى لم يجعله خاصا بخلق معين •

المطلق لايمنع شموله لشىء من المخلوقات ، وقد بين موسى عليه السلام هذا الشمول فى قوله ـ أى الذى حكاه الله عنه (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) .

وقد ذكر القرآن الخلق الخاص بالانسان فى قوله (ياأيها الانسان ما غرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ـ الآيتان ٦ ، ٧ سورة الانفطار) ، وذكر الخلق الخاص بالانسان وغيره فى أول ما نزل من القرآن وهو قوله (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم) .

وابن تيمية يذكر فى هذه الآيات ، أن الله تعالى خلق جميع خلقه لغاية مقصوده ، فجميع المخلوقات لابد أن تهدى الى هذه الغاية المخلوقة من أجلها ، لأن جميع مصالحها وما أريدت له لا تتم الا بهدايتها الى غاياتها ، وهذا مما يبين أن الله تعالى خلق الأشياء لحكمة وغاية تصل اليها ، كما قال بذلك السلف وجمهور المسلمين ، وجمهور العقلاء ـ راجع : مجموع التفسير ص ٥٠ ـ

ثم أخذ الشيخ رحمه الله يبين ما ذهبت اليه فرقة الجهمية من : أن الله لم يخلق شيئا لشىء ، أى لحكمة أرادها ، وما ذهب اليه بعض الفلاسفة من اثبات عناية الله وحكمته ، مع انكارهم ارادته .. ورد الشيخ على أصحاب هذه الفرقة ردا مطولا كافيا ، حتى استطاع أن يهدم آراءهم الضالة المضلة لأفكار المسلمين ، وأن يبين الحق الذى قال به جمهور المسلمين والعقلاء من اثبات ارادة الله وحكمته فى جميع المخلوقات .

ثم شرع يفسر الآية الثالثة وهى قوله تعالى (والذى قــدر فهدى) فبين صــورا ومثلا للتقــدير والهداية ، وذكر ما فسره بعض من سبقوه من المفسرين ، وأيد من أقوالهم مارآه صوابا، فقال فى تفسير الآية الثالثة : —

فقوله سبحانه (والذى قدر فهدى) يتضمن أنه قدر ماسيكون للمخلوقات وهداها اليه ، علم ما يحتاج اليه الناس والدواب من الرزق ، فخلق ذلك الرزق وسواه ، وخلق الحيوان وسواه وهداه الى ذلك الرزق ، وهدى غيره من الأحياء •

وخلق الأرض وقدر حاجتها من المطر ، وقدر السحاب ، وما يحمله من المطر ، وخلق ملائكة وهداهم ليسوقوا ذلك السحاب الى تلك الأرض ، فيمطر المطر الذى قدره ، وقدر ما ينبت بها من الرزق ، وقدر حاجة العباد الى ذلك الرزق وهداهم الى ذلك الرزق ، وهدى من يسوق ذلك الرزق اليهم — راجع : مجموعة التفسير ص ٥٨ —

ووقف ابن تيمية عند هذا الحد ، ولم يتعرض للانســان من حيث : هل هو خالق لأفعاله ، ومن هذه الأفعال : طاعــة الله وعصيانه ، أم الكل مخلوق لله ، قدر عليه فى الأزل ؟ • فكان ذلك هو محل النزاع بين الفرق التى عرفت فى جدالها بالكلام ، وخاصة : المعتزلة والقدرية •

ثم أخذ ابن تيمية يتعرض لأقوال هؤلاء عند كلامه عن رجال التفسير السابقين •• فذكر أن المفسرين ذكروا أنواعا من تقدير الله وهدايته لخلقه ، فهــذا ابن جرير الطبــرى ، يروى عن قتادة فى بيان معنى الآية : أن الله قدر الانســان للشــقاوة

والسعادة ، ومعنى هذا ، أن الله أراد أفعال الانسان كلهـا ، وقدرها عليه وهداها اليه .

فابن تيمية يرى ما يراه هـؤلاء المفسرون فى هذا الاتجاه ، وهو رأى أهل السنة الذين يرجعون كل شىء لله .

ثم يذكر عن قتـادة قوله « لا والله ما أكره الله عبـدا على معصية قط ، ولا على ضلالة ، ولارضيها له ، ولا أمره بهـا ، ولكن رضى لكم الطاعة ، فأمركم بها ، ونهاكم عن المعصية » .

والشيخ يتفق مع قتادة ، فى أن الله لم يكره أحدا من عباده على معصية ، فان أهل السنة الذين يثبتون تقدير الله لمـا كان ويكون ، هم على اتفاق بأنه تعالى لا يكره أحدا على معصية ، كما يكره الوالى والقاضى وغيرهما بالعقوبة والوعيد : الانسان بأن يعمل خـلاف ما يريد .. بل انه سبحانه وتعالى هو الذى يخلق ارادة العبد للعمل ، كما يخلق قدرته وعمله ، وهـو خالق كل شىء .

هكذا نجد ابن تيمية ، يتفق مع رأى قتاده ، ومن هنا اتهم بالميل الى آراء المعتزلة ، ويقول ابن تيميـة فى هذا الاتهـام « وهذا الذى قاله قتادة قد يظن فيه أنه من قول القدرية ـــ أى المعتزلة ـــ وأنه لسبب مثل هذا اتهم قتادة بالقدر ، أنظـر : مجموعة التفسير ص ٥٩ ـــ

ثم يمضى الشيخ ابن تيمية فى تفسيره الى آخر هذه الآية ، ثم يتناول الآية التى بعدها ، وهو فى كل آية يسـير على نفس هذا التفسير فيتعرض الى الآيات التى من سور أخرى ، والتى لها صلة بما يفسره من آيات .

وبمثل هذا التفسير يشبع الآية التى يفسرها بيانا وايضاحا واحاطة .

وفى تتبعه هذا الطويل الشاق لتفسير آيات هذه السورة وغيرها يعرج على مباحث كلامية واسلامية متعددة ومختلفة ، ومع ضيق المقام هنا وعدم امكان استيعاب هذه الصفحات لتفسيره لكل الآيات ، لكننا سنأتى بشىء موجز لتفسير الآيتين الأخيرتين من سورة العلق ، وهما قوله تعالى (ان هذا لفى الصحف الأولى ، صحف ابراهيم وموسى) .

فقوله تعالى (ان هذا لفى الصحف الأولى) هو ما يقوم عليه الدين من الايمان والعمل الصالح ، وهذان الأصلان يتضمنهما قوله جل ذكره (قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى) — راجع مجموعة التفسير ص ١١٣ وما بعدها .

وفى تفسيره لقوله تعالى (صحف ابراهيم وموسى) تكلم عن حكمة جمع القرآن بين ابراهيم وموسى عليهما السلام فى هاتين الآيتين من سورة الأعلى ، ثم عن حكمة قرن أحدهما بالآخر فى آية أخرى بسورة النجم فى قوله تعالى (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى) وفى ذلك يقول رحمه الله « ولما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، بعثه الى أهل الأرض ، وهم فى الأصل صنفان « أميون وكتابيون » ، والأميون كانوا ينتسبون الى ابراهيم ، فانهم ذريته وخزان بيته — وهى الكعبة — وعلى بقايا من شعائره ، والكتابيون أصلهم كتاب موسى .

وكلا الطائفتين قد بدلت وغيرت ، فأقام ملة ابراهيم بعد

اعوجاجها ، وجاء بالكتاب المهيمن المصدق لما بين يديه ، المبين لما اختلف فيه ، وما حرف وكتم الكتاب الأول •• وهو الذى أنزل على موسى عليه السلام — راجع : مجموعة التفسير ص ١٢٠ — ١٢١ —

ويتضح من قول ابن تيمية هنا : أن ابراهيم عليه السلام ، هو صاحب الملة وامام الأمة ، وأن موسى عليه السلام هو كليم الله وصاحب الشريعة وأهدى كتاب أنزل من السماء قبل القرآن الذى جاء بعده أهدى ثم أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم بملة ابراهيم الى ذريته ، والى أتباع موسى ، فصار بذلك رسولا للعالمين جميعا •

واذن ، فان ابراهيم وموسى عليهما السلام ، قد أقاما أصل الدين ، وهو : الاقرار بوحدانية الله ، الها واحدا لا شريك له ، فلا معبود بحق الا هو •• اليه ترتفع الأكف فى ذل وخضوع وخشوع ، ترجو وتطلب لأنه وحده المتفضل على عباده جميعا بما يتقلبون فيه من نعم ، وبما يستمتعون به من حياة ، يربيهم بها وبنشئهم عليها ، ثم جاء من بعدها محمد صلى الله عليه وسلم فأقام الدين ، وأتم بناءه ، وأكمل لبناته ، فكان بهذا خاتم الأنبياء والمرسلين •

وبمناسبة ذكره لابراهيم الخليل يعرض الشيخ رحمه الله الى ما كان بين ابراهيم عليه السلام ، وبين كنعان « ملك بابل » من مناظرة حول اثبات خلق كل شىء لله •• هذه المناظرة التى جاء حوارها فى الآية ٢٥٨ من سورة البقرة •• كما تعرض الى مناظرته للمشركين الذين ألهوا الأوثان والحجارة التى لا تسمع

ولا تبصر ، ولا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا .. هذه المناظرة هي التي جاء ذكرها في الآيات ٤١ ــ ٤٨ من سورة مريم ، بين ابراهيم وبين أبيه آزر وفي الآيات ٦٩ ــ ٨٩ من سورة الشعراء بين ابراهيم وبين أبيه وقومه .

وبمناسبة ذكره لموسى عليه السلام ، تحدث عما كان بين موسى وبين فرعون عزيز مصر من مناظرة .. ذلك الفرعون الذي جحد نعم الله ، وكفر بآياته ، واستبد بقومه ، وجعل نفسه الها مع الله ، ونازعه حق التشريع ، كما تحدث عن دعوة موسى لفرعون وقومه للايمان بالله ، الى ما كان بينه وبين قومه حين ذهب الى ميقات ربه ، ثم أتخذ لهم السامرى عجلا من ذهب له خوار ، زاعما أنه الههم واله موسى .

ثم نراه عندما ينتهي من تفسير ذلك كله ، يشير الى ما كان من أمر رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه من مشركي العرب ، حين دعاهم الى نبذ دين الآباء والشيوخ ، وترك عبادة الأصنام ، وعدم اتخاذها شركاء لله ، فرفضوا دعوة النبي مع ما فيها من خير وهدى ، ويبين الشيخ ما جاء على لسان النبي صلى الله عليه وسلم من قوله تعالى في الشرك (أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ، وان تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ، ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا

شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون) .

وعلى هذا النحو يبين الشيخ ، ان الأنبياء والمرسلين الثلاثة « ابراهيم وموسى ومحمد » قاموا ببيان أصول الدين ، وأساس العقيدة الآلهية ، وأقاموا الأدلة القوية الحاسمة المقنعة على اثبات وجود الله ، وأنه الخالق لكل شيء ، وأنه اله يتصف بالوحدانية ، وينفرد بالألوهية ، فهو وحده « الله الذى لاشريك لـه » من أى مخلوق ، مهما عظم شأنه ، وسمت مكانته ، وأنه تعالى هو أهل لكل حمد وثناء يصدران من العباد .

وعلى هذا النمط من التفسير الفريد يظل الشيخ الجليل ينتقل من بحث الى بحث ، ويتعرض فى بحوثه لكثير من القضايا والمسائل الاسلامية الهامة التى أثيرت بين أهل السنة والمعتزلة، وغيرها من المسائل التى لا تجد لغيره فيها نظيرا فى البحث والدراسة .

(ب) سورة الفلق

تحدث الشيخ رحمه الله فىهذه السورة عنأصول الاستعاذة، اذ أن السورة تسمى هى وما تليها بـ « المعوذتان » فبين : ما هى الاستعاذة ، والمستعاذ به ، والمستعاذ منه ، وقبل أن يشرح معانى هذه الأصول أورد عدة أحاديث نذكرها فيما يلى :

روى مسلم فى صحيحه عن عقبة بن عامر ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال له « ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط : أعوذ برب الفلق ، وأعوذ برب الناس » .

كما روى مسلم بلفظ آخر ، أنه صلى الله عليه وسلم ، قال له « ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعـوذون » ؟ قلت : بلى، قال « قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس » .

معنى الاستعاذة :

ثم يقول الشيخ فى معنى الاستعاذة : حقيقة معناها : الهروب من شىء تخافه الى من يعصمك منه ، ولهذا يسمى « المستعاذ به » معاذا كما يسمى ملجأ ووزرا .

وقيل : ان معناها لغة يرجع الى الستر ، لأن العرب تقول للبيت الذى فى أصل الشجرة ، فاستتر بها « عوذ » فكذلك العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه ، واستجن به منه .

وقيل : ان معناها هى لزوم المجاورة ، فان العرب تقول للحم اذا لصق بالعظم « عوذ » لأنه اعتصم به واستمسك ، فكذلك العائذ يستمسك بالمستعاذ به ويعتصم به ويلزمه .

ثم يقول : « فمعنى الاستعاذة القائم بقلب المؤمن ، وراء هذه العبارات ، وانما هى تمثيل واشارات وتفهيم ، والا فما يقوم بالقلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدى الرب، والافتقار اليه والتذلل بين يديه أمر لا تحيط به العبارة .

ومعنى قول ابن تيمية ، ان استعاذة المؤمن حين يستعيذ بالله حقا هو شىء كبير جدا .. هو شىء فوق الأمثلة التى ذكرها فى بيان معانى الاستعاذة اللغوى وذلك بقصد تقريب المعنى من الذهن ، وتوضيحها فى المفهوم .

ثم يمضى الشيخ فى التفسير ، فيشرح معنى « الفلق » فيقول « واعلم أن الخلق كله فلق ، وذلك أن « الفلق » فعل بمعنى فعول ، كقبض وسلب وقنص ، بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص ، والله عز وجل فالق الاصباح وفالق الحب والنوى ، وفالق الأرض عن النبات ، والجبال عن العيون ، والسحاب عن المطر ، والأرحام عن الأجنة ، والظلام عن الاصباح .

المستعاذ به :

وعلى هذا فان المستعاذ به يكون هو الله .. الخالق لكل شيء فى هذا الوجود ، المسيطر على كل شيء فيه ، ثم يتحدث الشيخ عن المستعاذ به كما تذكره سورة الفلق بـ « رب الفلق » وسورة الناس بـ « رب الناس ، وملك الناس ، واله الناس » .. يتحدث الشيخ عن صفات « الرب ــ الملك ــ الاله » وعن معانى اختلاف هذه الصفات فى السورتين ، ومدى مناسبة هذه المعانى للاستعاذة المطلوبة لدفع أذى المستعاذ منه فيقول:

« ولابد من أن يكون ما وصف الله به نفسه فى هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة ، ويقتضى دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها .

وقد قررنا [1] فى مواضع متعددة ، أن الله سبحانه يدعى بأسمائه الحسنى ، فيسأل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه

(١) راجع : تفسير سورة المعوذتين ص ٩ ، ١٠ للامام ابن تيمية.

.. فلابد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضيا للمطلوب ، وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه .

المستعاذ منه :

ثم ينتقل الشيخ رحمة الله الى الكلام عن الشر المستعاذ منه، فيبين أنواع هـذه الشرور المستعاذ منهـا فى هاتين السورتين « الفلق والناس » ويبدأ الكلام بما فى سورة الفلق من الشرور، وهى أربعـة :

١ ــ « شر المخلوقات » ان « ما » فى قوله تعالى (من شر ما خلق) موصولة ليس الا ، فالشر فى هذه الآية مسـند الى الخلق لا الى الخالق ، فان الشر لا يدخل مطلقـا فى شىء من صفاته أو أفعاله ، فان أفعاله خير محصن كلها ، ولو كان من أفعاله ما هو شر لاشتق له منه اسم ، فلا تكون اسماؤه كلها حسنى .

وما يكون منه تعالى من العدل بعبـاده الذى يقتضى عقوبة من يستحق العقوبة منهم ، وهو خير محض لأنه محض العدل والحكمة ، ولا تكون شرا الا بالنسبة اليهم .

ثم يبين الشيخ أن الشر من الأمور الاضافية ، فهـو خير بالنسبة لله خالقه ، وشر بالنسبة للعبد ، فيقول « إن السارق اذا قطعت يده فقطعها ، شر بالنسبة اليه ، وخير محض بالنسبة الى الناس جميعا ، وهذا لما فيه من حفظ أموالهم ، ودفع الضرر عنهم ، واذن يكون الشر هو ما قام بالسارق من تلك العقوبة، وأما ما نسب الى الله من ارادته لهذا ، فهو عين الخير والحكمة ــ راجع : تفسير المعوذتين ص ١٨ ــ ٢٠ للامام ابن تيمية.

ومصداقا لقول الشيخ رحمه الله نقرأ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذى يقول فيه « لبيك وسعديك والخير فى يديك والشر ليس اليك » وبهذا نرى الرسول الأعظم نزه ربه تعالى من نسبة الشر اليه فى أسمائه وصفاته وأفعاله ، حتى وان دخل فى أفعاله شىء من مخلوقاته .

كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ من كل شر يأتى من مخلوقات الله من « انس وجن ودواب وريح وصواعق » أو أى نوع من أنواع البلاء .

٢ — الشر الثانى « من شر غاسق اذا وقب » يقول ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى الغاسق اذا وقب : أنه الليل اذا أقبل بظلمته من المشرق ودخل فى كل شىء وأظلم ، والغسق : الظلمة .

وقد أورد بعض المفسرين لهذا ، معانى عديدة منها : الليل اذا برد ، والغسق : البرد ، والغساق : هو الزمهرير ، يحرقهم ببرده ، كما تحرقهم النار بحرها .

ويختار الشيخ ابن تيمية من بين هذه التفاسير ، قول ابن عباس فيقول :

« والظلمة فى هذه الآية أنسب لمكان الاستعاذة ، فان الشر الذى يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذى فى الليل ، ولهذا استعاذ برب الفلق الذى هو — الصبح والنور — من شر الغاسق الذى هو — الظلمة — فناسب الوصف المستعاذ به للمعنى المطلوب بالاستعاذة .

ثم يبين الشيخ وجه الاستعاذة من شر الليل ، فيقول « والليل محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة ، وفيه تنتشر الشياطين •• والليل هو محل الظلام ، وفيه تتسلط شياطين الانس والجن مالا تتسلط بالنهار ، فان النهار نور ، والشياطين انما يكون سلطانهم فى الظلمات والمواضع المظلمة ، وعلى أهل الظلمة •

٣ ــ الشر الثالث « من شر النفاثات فى العقد » فى كتب اللغة ، أن النفث : هو كالنفخ ، وهو أقل من النفل ، ونفث ريقه ، ونفث فى العقدة ، وامرأة نفاثة : سحارة ورجل منفوث: مسحور ، ونفث الشيطان فى الشعر ، وهذا من نفاثات فلان: من شعره ، ونفث فى روعى : ألهمته •

وفى هذا يقول الشيخ « فاذا تكيفت نفسه ــ نفث النافث ــ بالخبث والشر الذى يريده بالمسحور ، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة ، ونفخ فى تلك العقد نفخا معه ريق ، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقترنا بالريق الممازج لذلك •

وقد يتساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور فيقع فيه السحر باذن الله الكونى القدرى،لا الأمر الشرعى ــ راجع: تفسير المعوذتين ص ٣٣ ــ

٤ ــ الشر الرابع « مَن شر حاسد اذا حسد » وهذا الشر هو من الشرور التى تضمنتها سورة الفلق ، وجاء الأمر فيها بالاستعاذة منها ، ويقول الامام ابن تيمية فى هذا « وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذى المسحور ،

فنفس جسده شر يتصل بالمسحور من نفسه وعينه ، وان لم يؤذه بيده ولسانه[1] .

راجع : تفسير المعوذتين الصفحات ٤٣ ـ ٤٦ .

وفى مباحث طويلة يتكلم ابن تيمية عن الحسد وحقيقته ، وكيف يكون ، كما يحدث فى الفرق بين الحسد والعين والسحر ، ومراتب الحسد ، كما يتحدث عن أسباب رفع الحسد ، وأنها عشرة وهى « الاستعاذة ، والتقوى ، والصبر ، والتوكل على الله ، والتخلى عما سواه ، والاقبال عليه ، والتوبة ، والصدقة ، والاحسان ، والتوحيد » ـ راجع : تفسير المعوذتين الصفحات ٤٣ ـ ٤٦ .

(ج) سورة الناس

بين ابن تيمية فى تفسيره لسورة الفلق معانى « الاستعاذة » ـ وهى الهروب من شىء تخافه الى من يعصمك منه ـ

---

(١) تعليق : ليس فى القرآن آيات تتحدث عن أن الساحر يمكن أن يأتى بفعل حقيقى ينال من الانسان بصورة تلحق به الضرر على النحو الذي يعتقده بعض الناس فى فاعلية السحر ، لكن السحر لا يتعدى : التخييل ، فهو يخدع الأعين ، فيريها ما ليس بكائن .. هكذا قال القرآن فى قصة موسى عليه السلام وسحرة فرعون ، حين وصف عمل السحرة بأنه : تخييل وخداع فقال تعالى (يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى) (فسحروا أعين الناس واسترهبوهم)
والتاريخ يشهد بأن السحر فى عصور الفراعنة كان يؤخذ بالتعلم ، وكان المصريون يطلقون لقب الساحر على العالم ، كما يؤخذ من قوله تعالى (وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك) .

و « المستعاذ به » ــ وهو الله الخالق لكل شيء فى هذا الوجود ــ و « والمستعاذ منه » ــ وبين الشرور الأربعة التى يستعيذ منها المستعيذ .

وفى هذه السورة يبين المستعاذ به الوارد فيها باضافة اسم الجلالة « الرب » الى الناس ، فى « رب الناس ، ملك الناس ، اله الناس » يبين الاضافة الأولى وهى « رب الناس » بأنها اضافة ربوبية ، تتضمن خلق الناس وتدبيرهم ورعاية اصلاحهم ومصالحهم ، ورفع الشر عنهم وحفظهم مما يفسدهم كما تتضمن أنه هو الذى يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف الكربات عنهم .

والثانية ، اضافة تلك فى « ملك الناس » فهم مماليكه وعبيده ، يتصرف فيهم ويدبر أمورهم كما يشاء ، وهو ملكهم الحق اليه مفزعهم عند الشدائد ، وهو مستغاثهم وملجؤهم اذا نزل العدو بساحتهم .

والثالثة ، اضافة الألوهية فى « اله الناس » فهو الههم الحق الذى لا اله لهم سواه ، ومعبودهم الذى لا معبود لهم غيره ، فكما إنه وحده « ربهم » و « مليكهم » لا يشركه فى ربوبيته ولا فى ملكه أحد ، فكذلك هو وحده « الههم ومعبودهم » .

واذا كان الله تعالى هو الذى يربى الناس بكل عناصر التربية ، وهو الذى يتفضل عليهم بما هم فيه من نعم وحياة ، فالأجدر بهم ألا يعرفوا الها غيره يستغيثون به ، ويلجئون اليه فى كل أمر من أمور حياتهم ، وهنا تظهر حقيقة الاضافات الثلاثة وأهميتها للاستعاذة من كل ما يضر الانسان .

وقد أشار ابن تيمية ، الى حكمة تقديم « صفة الرب »

وتأخير « صفة الاله » ومجيء « صفة الملك » فى وسط صفتى الربوبية والألوهية ، فبين : أن ربوبيته تستلزم ملكه ، وملكه يستلزم الهيته ، فهو الرب الحق ، الملك الحق ، الاله الحق ، خلقهم بربوبيته ، وقهرهم بملكه ، واستعبدهم بالهيته .

ثم نراه يفرق بين الشر المستعاذ منه فى كل من المعوذتين ، ففى سورة الفلق نجد الأمر بالاستعاذة من الشرور التى تأتى للانسان من خارج نفسه مثل : السحر والحسد ، أما فى سورة الناس ، فيأتى الأمر بالاستعاذة من الشر الذى يأتى للانسان من داخل نفسه وهو وسوسة الشيطان ، فيقول : —

« فالشر الأول — وهو المطلوب الاستعاذة منه فى سورة الفلق بأنواعه الأربعة — لا يدخل تحت التكليف ، ولا يطلب منه الكف عنه ، لأنه ليس من كسبه ، والشر الثانى فى سورة الناس ، يدخل تحت التكليف ويتعلق به النهى » — راجع : تفسير المعوذتين .

ثم يتحدث ابن تيمية عن الوسواس والوسوسة ، فيبين : أنه الحركة أو الصوت الخفى الذى لا يحس فيحترز منه ، وأن الوسواس هو الالقاء الخفى فى النفس ، أما بصوت خفى لا يسمعه الا من ألقى اليه ، واما بغير صوت كما يوسوس الشيطان الى الانسان .

ثم يتحدث ابن تيمية عن الوسواس ، هل هو مصدر لفعل « وسوس » أو صفة للشيطان المحذوف من الآية (شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) ؟ .

ويأتى ابن تيمية برأيين وردا عن المفسرين فى هذا ، اذ قال البعض منهم : أن الوسوسة فى الآية مصدر ، لا وصف ، وهو مصدر وصف به على وجه المبالغة ،أو يكون على حذف مضاف تقديره : ذو الوسواس •• فهذا مصـــدر بمعنى الوسوسة ، لكن ابن تيمية رفض أن تـــكون الوسوسة مصـــدر وصف به الشيطان ، ورد على هذا الرأى ، ورآى أن الوسوسة « وصف » للمستعاذ من شره وهو الشيطان ، وقال فى رده « ان الله تعالى وصــــفه ـ أى وصف الشــيطان ـ بما يســـتحيل أن يكون مصـــدرا ، بل هو متعين فى الوصـــفية وهو « الخناس » •• « فالوسواس » « والخناس » وصفان لموصوف محذوف وهو الشيطان ، وحسن حذف الموصوف ههنا غلبة الوصف ، حتى صار كالعلم عليه ، والموصوف انما يقبح حذفه اذا كان الوصف مشتركا فيقع اللبس ، كالطويل والقبيح والحسن ونحوه ، فيتعين ذكر الموصوف ليعلم أن الصفة له لا لغيره •

فأما اذا غلب الوصف واختص ولم يعرض فيه اشتراك فانه يجرى مجرى الاسم ، ويحسن حذف الموصوف ، كالمسلم أى الرجل المسلم ، والكافر ،والبار ، والفاجر ، والقاضى ، والدانى ، والشاهد ، والوالى ، ونحو ذلك ، فحذف الموصوف هنا أحسن من ذكره » •

والشيطان له صفتان آخريان هما « الخناس والوسواس » الذى يوسوس فى صدور الناس ، وهذه الصفة « الخناس » كما فى كتب اللغة مأخوذ من فعل « خنس يخنس •• اذا توارى واختفى » ودليل ذلك قول أبى هريرة رضى الله عنه : لقينى

النبى صلى الله عليه وسـلم فى بعض طرق المدينة وأنا جنب فانخنست منه ..

وهكذا يرى ابن تيمية أن فعل خنس معناه : الاحتفـاء ، ولهذا وصـفت الكواكب فى القرآن الكريم « بالخنس » قال قتاده : هى النجوم ، تبدو بالليل وتخنس بالنهار فلا ترى .

ثم يقول « والخناس مأخوذ من هذين المعنيين ، فهو من الاختفاء والرجوع والتأخر ، فان العبد اذا غفل عن ذكر الله ، جثم على قلبه الشـيطان ، وانبسـط عليه ، وبذر فيه أنواع الوساوس ، فاذا ذكر العبد ربه ، واستعاذ به انخنس وانقبض .. الخ » .

ثم يتحدث الشيخ عن قوله تعالى (الذى يوسوس فى صدور الناس) فيبين ، أن وسوسة الشيطان محلها صدور الناس ثم تتسلل منها الى القلوب .

فيقول « وتأمل السر فى قـوله تعالى (الذى يوسـوس فى صدور الناس) ولم يقل (فى قلوبهم) ان الصدر هو ساحة القلب وبيته ، فمنه تدخل الواردات اليه ، ثم تلج فى القلب ، فهو بمنزلة الدهليز له ، ومن القلب تخـرج الأوامر والارادات الى الصدر ، ثم تتفرق على الجنود ، ومن فهم هذا ، فهم قـوله تعالى فى سورة آل عمران (وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم) .

« فالشيطان يدخل الى ساحة القلب وبيته ، فيلقى ما يريد القاءه الى القلب ، فهو يوسوس فى الصدر ، ووسوسته واصلة

الى القلب ، ولهذا قال تعالى فى سورة طـه (فوسوس اليه الشـيطان) ولم يقل « فيه » ، لأن المعنى أنه ألقى اليه ذلك وأوصله اليه ، فدخل فى قلبه .

وابن تيمية يذكر — فى سياق تفسيره — رأيا آخر فى تفسير الآية ، ذهب اليه بعض المفسرين للقرآن ، فهم يرون أن قوله تعالى (من الجنة والناس) بيان للموسوس فى صدورهم وهم قسمان : انس وجن ، فالشيطان يوسوس للجنى كما يوسوس للانسى .

ولكن الشيخ يضعف هـذا الرأى ، وفى سـياق كلامه عن التضعيف يتحدث عن اشتقاق كلمة « الناس » ، ويبين أن الجنة لايطلق عليهم اسم « الناس » لا أصلا ولا اشتقاقا ، فيقول « ان قوله (من الجنة والناس) بيان للذى يوسوس ، وأنهم نوعان : انس وجن ، فالجن يوسوس فى صدور الناس ، والانس أيضا يوسوس الى الانسى ، فان الوسوسة هى الالقاء الخفى فى القلب ، وهذا مشترك بين الجن والانس ، وان القاء الانس ووسوسته ، انما هى بواسطة الأذن ، والجن لا يحتاج الى تلك الواسطة لأنه يدخل فى ابن آدم ويجرى منه مجرى الدم .

وكما يشـتركان فى هذه الوسوسة ، يشـتركان فى الوحى الشيطانى ، قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن ، يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا)

بهذا يبين الشيخ أن الشيطان يوحى الى الانسان باطله ، والانسان يوحى كذلك الباطل الى انسان مثله ، فشياطين الانس

والجـن يشـتركان فى الوحى الشـيطانى ، ويشـتركان فى الوسوسة .

ثم يختتم الشيخ كلامه ببطلان الرأى الآخر المخالف له .

فى أصول الفقه :

لم يكن ابن تيمية صاحب مذهب معين فى الفقه كما فعل غيره من الأئمة ، ولكنه كان مجتهدا .. ومع اجتهاده كان يأخذ بمذهب الامام احمد بن حنبل فى جملة ما يأخذ من الفقه ، وفيما يلى نبين الأصول الخمسة التى استقى منها هذا العالم الجليل تراثه الفقهى .

الـكتاب :

أما كتاب الله ، فلم يحدث أن اختلف فيه أحد من المسلمين ، باعتباره الأصل الأول من أصول الاسلام فى عقائده ومبادئه وتشريعاته ، وما يدعو اليه من الاخـلاق والآداب والمعاملات بكافة أنواعها .

الســنة :

وأما السنة فلا خلاف فى أنها الأصل الثانى بعد كتاب الله ، والشيخ ابن تيمية يذكر لنا أنواع السنة وهى ثلاثة :

١ ـ النـوع الأول : الســنة المتواترة ، وهى التى تفسر القرآن ولا تخالف ظاهره ، وهى التى بينت عدد صلوات اليوم والليلة ، وعدد ركعات كل صلاة ومقدار نصاب الزكاة فى أنواع الأموال المختلفة ومناسك الحج والعمرة ، وكيفية أدائها وغير

ذلك من الأحكام التى أوضحتها السـنة النبوية ولم توضحها غيرها •

٢ ـ النوع الثانى : وهو الذى لم يأت بتفسير للقرآن ، ولم يخالف ظاهره ، ولكنه جاء بأحكام جديدة مثل : الحكم الذى جاء برجم الزانى وتقدير نصاب السرقة ، الى غير ذلك من الأحكام التى لم يأت القرآن بنصوص فيها ، ولم تخالف ظاهره •

وهذا النوع من السنة جاء متمما للتشريعات التى جاء بهـا القرآن •

٣ ـ النوع الثالث : وهو عبارة عن الأحاديث التى تعرف بأحاديث الآحاد ، والتى وصـلت الينـا بروايات الثقات عن الثقات ، والتى يتلقاها المسـلمون بالقبول ، وابن تيمية يأخذ بها باعتبارها من أصول الفقه ، ويجب تقديمها على ما هو أقل منها فى درجات أصول الفقه ، ونجده يقول فى هذا « وهذه أيضا مما اتفق أهل العلم على اتباعها من أهل الفقه والحديث والتصوف وأكثر أهل العلم ، وقـد أنكرها بعض أهل الكلام ، وكثير من أهل الرأى قد ينكر كثيرا منها بشروط اشترطها ، ومعارضات دفعها بها ووضعها ، كما يرد [1] بعضهم بعضـا لأنه يخالف ظاهر القرآن كما زعم ، ولأنه خلاف الأصول أو قياس الأصول أو لأن عمل متأخرى أهل المدينة على خلافه ، أو غير ذلك من المسائل المعروفة فى كتب الحديث والفقه وأصول الفقه » •

---

(١) بعض المذاهب كالحنفية ، يعملون بأحاديث الآحاد ، متى اتفقت مع القرآن ، ويردون ما لم يتفق منها مع القرآن ، وهـذا ما يريده ابن تيمية من كلامه .

ويتبين من كلام ابن تيمية أنه يأخذ بأحاديث الأحاد متى ثبت له صحته بخلاف بعض أهل المذاهب فهم لا يأخذون بأحاديث الأحاد ، لأنها تخالف ما جاء فى عموم القرآن ، أو تخالف ظاهره أو لأنها تخالف ما كان عليه أهل المدينة •• يأخذ ابن تيمية بما صح عنده من هذه الأحاديث امتثالا لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فى الحديث « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر بما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا ادرى ما وجدناه فى الكتاب اتبعناه » •

ومفهوم من حديث الرسول ، أنه تحذير للذين يتركون العمل بما صح من سنة النبى •

الاجماع :

ويأتى الاجماع — كمصدر من مصادر التشريع — بعد نصوص الكتاب والسنة •

والاجماع هو ما كان عليه الصحابة بعد زمن الرسول دون غيرهم ، وفى هذا يقول شيخ الاسلام « ولهذا اختلف أهل العلم فيما يذكر من الاجماعات الحادثة بعد الصحابة ، واختلف فى مسائل منه ، كاجماع التابعين على أحد قولى الصحابة ، والاجماع الذى لم ينقرض عصر أهله حتى خالفهم بعضهم •• ويذكر الشيخ مثالا لذلك بمسألة المضاربه [1] ، فقد كانت

(١) المضاربة : اصطلاح تجارى هو : أن يشترك شخصان فى تجارة ، أحدهما رأس المال ، والثانى بخبرته وبفنه ، وتكون الأرباح والخسارة بينهما بالمناصفة .

معروفة عند الجاهليين فى تجارتهم ، فلما جاء الاسلام كان أصحاب رسول الله يتجرون بأموال غيرهم ، فلم يتهمم عن المضاربة ، وأقرهم عليها .

والمعروف أن من السنة ما هو تقريرى ، بمعنى أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما وجد الناس يتاجرون بالمضاربة ، لم يأمرهم بتركها بل أقرهم على ذلك ، فاعتبر ذلك سنة — راجع : رسالة معارج الوصول .

ومن سند ابن تيمية فى صحة الاجماع واعتباره من السنة ، ما جاء فى الأخبار من أن ابن عباس كان يفتى بما جاء فى الكتاب، ثم بما فى السنة .

ثم يرد ابن تيمية على من قال من المتأخرين : أنه اذا وجد نص يخالف الاجماع فان هذا النص قد نسخ بنص آخر لم يعلمه هذا الفريق..يرد على ذلك ، ويرى أن هذا مخالف لما كان عليه السلف « وذلك لأن الاجماع اذا خالفه نص فلابد أن يكون مع الاجماع نص معروف به أن ذلك منسوخ ، فاما أن يكون النص المحكم قد ضيعته الأمة وحفظت النص المنسوخ ، فهذا ما لا يوجد قط وهو نسبة الأمة الى حفظ ما نهيت عن اتباعه وأضاعت ما أمرت باتباعه وهى معصومة عن ذلك .

وفى ختام الرسالة يؤكد « أن السنة لا تنسخ الكتاب ، وأن السنة لا ينسخها اجماع ، وأن الاجماع الصحيح لا يعارض كتابا ولا سنة » .

القياس :

ثم تأتى مرتبة القياس بعد الاجماع فى ترتيب الأصول .

والقياس الصحيح ، هو الذى يطابق النص ، ويوافق الأحكام الشرعية المستنبطة من أفعال الصحابة التى أقرها رسول الله فى حياته فقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم أقر معاذاحين أرسله الى اليمين ، وسأله عما يفعله اذا عرضت له قضية .. ويذكر ابن تيمية أن من الصحابة من عمل بقياس ، وقد روى عن على وزيد أنهما احتجا بقياس ، فمن ادعى اجماعهم على ترك العمل بالرأى والقياس مطلقا فقد غلط ، ومن ادعى أنه من المسائل ما لم يتكلم فيها أحد منهم الا بالرأى والقياس فقد غلط ، بل كان كل منهم يتكلم بحسب ما عنده من العلم .. الخ .

وابن تيمية يعتبر أن القياس الصحيح : هو ما يطابق ما جاءت به شريعة الله ، ويذكر فى صورة القياس الصحيح «أن تكون علة الحكم التشريعى فى الأصل موجودة فى الفرع من غير معارض فى الفرع يمنع حكمها ، ويضرب لذلك مثلا — فى فتاويه — يتناول فيه مسألة الخمر ، ويرد على من يزعم أن الخمر المحرم تعاطيه فى القرآن والسنة هو فقط ما كان يتخذ من عصير العنب الذى كان معروفا عند العرب فى الجاهلية ، أما الخمور التى تتخذ من المواد التى لم تكن معروفة عند العرب فلم يرد عنها تحريم . أنه يرد على هذا الزعم موضحا أن علة الاسكار موجودة فى المواد التى لم تكن معروفة عند العرب كما هى موجودة فى عصير العنب الذى كان معهودا عندهم ، وما دامت علة الاسكار فى المادتين واحدة ، والأمر متحقق فى العلتين ، فان التحريم يتناول

كل مادة مسكرة ، سواء عرفها العرب فى الجاهلية أم لم يعرفوها •

وقد جاء فى صحيح البخارى ومسلم قول الرسول صلى الله عليه وسلم « ان كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام » •

كما يذكر ابن تيمية أن تحريم كل المسكرات ثبت بالنص القرآنى لا بالقياس وحده ، لأن آية تحريم الخمر عندما نزلت عرف العرب من اللغة ومن بيان الرسول ، أن لفظ الخمر ليس خاصا بعصير العنب وحده ، وهو الذى كان معروفا عندهم ، بل يتناول كل مسكر •

وفى رسائله وفتاويه كثير من المسائل التى أوردها لبيان آرائه وآراء غيره فى القياس ـ راجع : مجموع الفتاوى الكبرى•

الاستصحاب :

وهذا الأصل حجة عند الشيخ ابن تيمية وعند غيره من الفقهاء فى الوصول الى الأحكام الفقهية ، ومعنى هذا الأصل ، أنه اذا سئل المجتهد فى أمر جد فى زمنه ولم يجد نصا من الكتاب والسنة، أو دليلا شرعيا آخر يبين حكمه الشرعى بالاباحة أو التحريم ، عليه أن يحكم بأنه مباح مؤسسا فتواه على « أن الأصل فى الأشياء الاباحة » الا ما حرم شرعا ، وهذه الاباحة هى الحالة التى خلق الله كل ما فى الأرض ، فانه من المعلوم أن الحالة القائمة ، اذا لم يقم دليل على تغييرها ، فان الحكم يجب أن يظل قائما فيها على الاباحة الأصلية •

• ما لمالك الشيء ما يظل مالكا له ، وتعتبر ملكيته قائمة له بدليل الاستصحاب ، فاذا تغير الحال وجد م ايثبت زوال ملكيته لهذا الشيء ، زالت هذه الملكية ، لأن الأصل ، بقاء الشيء على ما كان ، حتى يثبت ما ينهض على تغييره •

ويقول الخوارزمى فى كتابه « الكافى » عن هذا الدليل أو هذا الأصل : وهو آخر مدار الفتوى ، فان المفتى اذ سئل عن حادثه يطلب حكمها فى الكتاب ، ثم فى السنة ، ثم فى الاجماع ، ثم فى القياس ، فان لم يجده فيأخذ حكمها من استصحاب الحال فى النفى والاثبات ، فان كان التردد فى زواله ، فالأصل بقاؤه ، وان كان التردد فى ثبوته فالأصل عدم ثبوته •

المصالح المرسلة :

يعتبر ابن تيمية ، كما يعتبر الامام احمد بن حنبل رضى الله عنه — وهو الذى أخذ عنه ابن تيمية فقهه — يعتبران هذا الأصل من أصول الفقه الاسلامى ، وقد استند كلاهما الى هذا الأصل فى كثير من الأحكام الفقهية التى تكلموا فيها ، الا أن ابن تيمية — مع ايمانه بصحة هذا الأصل — كان يتردد فى قبول تطبيق هذا النص حتى يتبين له أن الأمر المعروض للفتوى هو من المصالح المرسلة حقيقة ، وأنه يحقق مصلحة ، ويدفع مضره •

والمصالح المرسلة هى : ثالث أمر من الأمور التى تناولها الشرع بالحكم فيها ، وهذه الأمور الثلاثة هى :

١ — أمر اعتبره الشارع •

٢ ـ أمر ألغاه الشارع •

٣ ـ أمر لا يعلم أن الشارع اعتبره أو ألغاه •

فالمصالح المرسلة هى هذا القسم الثالث ، أى أنه الأمر الذى لا يشهد له أصل من أصول الشريعة الاسلامية بالاعتبار ولا بالألغاء ، واذن فان كل مصلحة غير مقيدة بنص من الشارع يدعو الى اعتبارها أو عدم اعتبارها ، ويرى الفقيه أو الباحث أن فيها جلب مصلحة أو دفع مضرة يجب أن يؤخذ بها •

أمثلة من المصالح المرسلة :

١ ـ لا يوجد نص فى القرآن ولا فى السنة يوجب جمع كتاب الله من صدور الصحابة ومن الصحف والرقاع التى كان كتاب الله محفوظا بها ، لكن عندما خرج الصحابة الى الحروب وجدنا كثيرا من حفاظ القرآن يستشهدون ، وبهذا تضيع بعض آيات القرآن من الصدور فكان أن فاتح عمر أبا بكر بكتابة القرآن وجمعه ، رعاية للمصلحة العامة ، لكن أبا بكر تردد بادىء الأمر فى هذا العمل وقال : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ •• لكن عمر ظل يراجعه حتى قبله ، وتم جمع المصحف من الصدور والرقاع والصحف •

٢ ـ عارض عمر رضى الله عنه ، اعطاء « المؤلفة قلوبهم » على الاسلام نصيبا من الصدقات والزكاة بالرغم مما جاء فى القرآن والسنة من اعطائهم ، وقال لاثنين من طالبى الصدقة « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتألفكما والاسلام

يومئذ قليل ، وان الله قد أغنى الاسلام ، اذهبا فاجهدا جهدكما، لأرعى الله عليكما ان رعيتما » •

٣ ـــ عندما فتحت أرض العراق فى عهد عمر رضى الله عنه ، أبقى الأراضى فى أيدى أهلها الذين كانوا يحوزونها قبل الفتح، لكنه وضـــع الخراج عليهم بدل توزيع أربعة أخماســها على الفاتحين ، أصـــحاب الحق فى ذلك بموجب الفتح كما هـــو معروف •

هذه أمثلة من المصالح المرسلة التى لم يعتبرها الشـــارع أو يلغها ، وأخذ بها الصحابة ، وعلى هذا سار الامام أحمد بن حنبل فى فتاويه ، لأنه سلفى النزعة ـــ كما تعرف ـــ ونحفظ له من فتاويه هذه الأمثلة فى الأخذ بمبدأ المصالح المرسلة :

١ ـــ يرى الامام ابن حنبل أن جـــزاء من شرب الخمر فى رمضان أو أتى شيئا نحو ذلك ، هو اقامة الحد عليه مع التغليظ فيه مثل الذى يقتل فى الحرم خطأ فعليه دية •

٢ ـــ يرى وجوب نفى المخنث ، لأنه لا يأتى الا بالفســـاد والاضرار بأخلاق المجتمع ، وللامام نفيه الى بلد يأمن فســـاد أهله وان خاف عليهم حبسه •

٣ ـــ يرى ان من طعن على الصحابة يجب على السلطان عقوبته ، وليس له أن يعفو عنه ، بل يجب أن يعاقبه ويستتيبه ، فان تاب ، والا أعاد العقوبة •

هكذا نجد الامام ابن تيمية يأخذ بمذهب الصحابة فى مبدأ المصالح المرسلة ••

وهكذا نجد الامام أحمد بن حنبل الذى أخذ عنه ابن تيمية .

وهناك فرق فى مأخذ الامامين الجليلين بهذا المبدأ ، فالامام ابن حنبل يأخذ بمبدأ المصالح المرسلة بدون تردد ، لكن الامام ابن تيمية يتردد ويتشكك فى الأخذ بهذا الأصل ـ كما أسلفنا ـ حتى تتضح له حقيقة ما يعرض عليه من المصلحة ، وحجته فى هذا التردد هى للسبب الآتى :ـ

أن عصره كان زاخرا بكثير من المتصوفين وأصحاب المقالات الزائفة المتعددة فى الأسلام ، فكانت فى أعمالهم مايراه أنه مخالف للكتاب والسنة ، وكانوا يعتبرونها أعمالا صالحة ، تحقق منافع عظيمة ، وتدفع مضارا كثيرة .

وكان من الأمراء والسلاطين من استمعوا الى أمور باطله زينتها لهم شـياطين الانس من المحيطين بهم من الحاشـية ، فاعتقدوا أنها أعمال تجلب الخير ، وتمنع الشر ، فكان يرى أن هؤلاء وأولئك يصدق عليهم قول الله تعالى (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) .

من أجل هذا يقف ابن تيمية من مبـدأ « المصالح المرسلة » موقف المتريث المترقب الذى يطلب اليقين ، فهو لا يأخذ بهـا الا بعد التثبت من حقيقة الأمر المعروض ، وصدق تحقيقه للخير، ودفعه للشر فعلا .

وهو فى هذا يقول « وهذا فضل عظيم ينبغى الاهتمام به ، فانه من جهته حصل فى الدين اضطراب عظيم ، وكثير من الأمراء

والعلماء والعباد ، رأوا مصالح فاستعملوها بنـــاء على هذا الأصل ، وقد يكون منها ماهو محظور فى الشرع ولم يعلموه .

وكثير منهم من أهمل مصالح يجب اعتبارها شرعا بناء على أن الشرع لم يرد بها ، ففوت واجبات ومســـتحبات ، أو وقع فى محظورات ومكروهات ، وقد يكون الشرع ورد بذلك ولم يعمله .

وحجة الفريق الأول ، أن هذه مصلحة ، والشرع لا يهمل المصالح ، بل قد دل الكتاب والسنة والاجماع على اعتبارها .

وحجة الفريق الثانى ، أن هذا أمر لم يرد به الشرع نصا ولا قياسا » .

الباب الثالث

مَنهجهُ في قضايا الدِّين

كان الشيخ ابن تيمية واضحا كل الوضوح فى تطبيق منهجه المعروف فى اثبات العقائد الدينية مثل عقائد « وجود الله ، وحدوث العالم عنه ، ووجوب صفات الكمال » ومثل « صلة العبد بربه ، ووجوب الايمان بالقضاء والقدر » الى غير ذلك من العقائد التى يتحتم على الباحث المدقق أن يستدل لها من القرآن والسنة ، مع آثار السلف الصالح .

والشيخ حين يفعل ذلك ينفى عن هذا العلم كل ما قال به الفلاسفة والمناطقة الذين أدخلوا فى دين الله وأصول عقائده ما لم يأت به القرآن ، ولا تكلم به الرسول ، ولا عرفه صحابته الذين أمرنا باتباع سنتهم ، وهم بذلك أوقعوا الناس فى ضلالات وشبهات انحرفت بهم عن سبيل هداية الكتاب والسنة .

ويذكر الشيخ فى كتابه « معارج الوصول الى معرفة أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول » يذكر : أن الرسول قد بين أصول الدين الحق الذى أنزل الله به كتابه أحسن بيان ، وأنه دل الناس وهداهم الى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية التى بها يعلمون اثبات ربوبيه الله ووحدانيته وصفاته ، وصدق رسوله وغير ذلك مما يحتاج الى معرفته » .

« ثم يقول فيه أيضا : « بل الكتاب والسنة دلا الخلق وهدياهم الى الآيات والبراهين والأدلة المبينة لأصول الدين ، وهؤلاء المغالطون ، الذين أعرضوا عما فى القرآن من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية صاروا — اذا صنفوا فى أصول الدين — أحزابا يتكلمون بكلام اختلط فيه الحق بالباطل .

والشيخ رحمه الله ، يشرح فى احدى رسائله ما يجب الايمان به من العقائد الدينية ، ويتحدث عنها ، ويأتى بأدلتها من الكتاب والسنة ، وذلك فيما يتناوله من الايمان بالله وصفاته ، والايمان بكتابه واليوم الآخر وأخباره ، والايمان بالقضاء والقدر ، والايمان بكرامات الأولياء وشفاعة الرسول .

رأيه فى صفات الكمال لله وصفات العلو

ومما يتحدث فيه الشيخ فى احدى رسائله الاستدلال لثبوت صفات الكمال والعلو لله، ويحسن أن نأتى هنا بشىء مما يتحدث فيه فى هذا ، يقول :

« ١ — قوله تعالى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) ، يقول الله تعالى : اذا كنتم لا ترضون بأن يشارك المملوك مالكه ، لما فى ذلك من النقص والظلم ، فكيف ترضون ذلك لى ، وأنا أحق بالكمال والغنى منكم ؟ ! وهذا يبين أنه أحق بكل كمال من كل أحد .

٢ — قوله تعالى : (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون)

بين الله هنا أن الخلق صفة كمال ، وأن الذى يخلق أفضل من الذى لا يخلق ، وأن من عدل هذا بهذا فقد ظلم •

٣ ــ قوله تعالى : (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون) بين هنا أن كونه مخلوقا عاجزا ، صفة نقص ، وأن القدرة والملك والاحسان صفة كمال ، وهذا الله وذلك مخلوق يعبد من دون الله •

هكذا يتحدث الشيخ فى اثبات صفات الكمال لله تعالى ،وتنزيهه عن كل نقص ، مستدلا لذلك بآيات من القــرآن ، نهجه فى كل معتقداته وتفاسيره •

وفى بيان علو الله تعالى عن خلقه يســير الشيخ أيضا على نفس النهج الذى سار عليه ، وفى هذا يقول فى احدى رسائله « •• ووجوب اثبات العلو لله تعالى ونحوه يتبين من وجوه ، أحدهما :أن يقال:ان القرآن والسنن المستفيضة المتوافرة وكلام السابقين والتابعين ، بل وسائر القرون الثلاثة مملوء بما فيه من اثبات العلو لله على عرشه بأنواع من الدلالات ، ووجوه من الصفات ، وأصــناف من العبادات • فتارة يخبر أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم اســتوى على العرش ، وقد ذكر الاســتواء على العرش فى سبعة مواضع من ســور القرآن الكريم •

وتارة يخبر بعروج الأشياء صعودها وارتفاعها اليه كقوله تعالى (بل رفعه الله اليه) •

وتارة يخبر بنزولها منه ، أو من عنده كقوله تعالى (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) (بل نزله روح القدس من ربك بالحق) .

وتارة يخبرنا بأنه فى السماء كقوله تعــالى (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هى تمور ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا) .

كذلك قال النبى صلى الله عليه وســلم « ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء [1] » .

وقال للجارية التى اشتكى سيدها منها للنبى « أين الله » ؟ قالت : فى السماء .. قال « اعتقها فانها مؤمنة » .

رأيه فى النقد :

أسس شيخ الاسلام ابن تيمية أعظم مدرســة نقدية فى الاسلام ، تميزت بقوة النقد ودقته ، والكتب التى ألفها الشيخ فى هذا الباب تكفى لقيام دراسة خاصة عليها ، لأنها ســتبرز ماتحتويه هذه الكتب من روائع الفكر ، وأبكار المعانى ، خاصة كتابه المشهور « منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشــيعة والقدرية » فقد أودعه الشيخ ألوانا فى النقد ، وأساليب الجدل بصــورة لا تتوفر فى كتاب آخر فى هذا المجال ، وكذلك كتابه « الموافقة بين المعقول والمنقول » وكتاب « الجواب الصحيح

---

(١) صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

لمن بدل دين المسيح » وكتابه « السبعينية » الذى كتبه فى الرد على ابن سبعين ، وأخوانه معتنقى عقيدة «وحدة الوجود» وكتاب « الصارم المسلول على شاتم الرسول » وكتابه « اقتضاء الصراط المستقيم » •

وفى نقد المنطق لأرسطى ، ألف الشيخ ابن تيمية كتابا ، يعتبر من أعظم ما ألف فى نقد أرسطو : حتى ان الغزالى — هو ناقد فيلسوف صفى معروف — سماه « معيار العلوم » •

وقد سبق ابن تيمية بهذا الكتاب فلاسفة العصر الحديث من أمثال « بيكون وكانت » وغيرهم ، وتناول ابن تيمية فى هذا الكتاب كل جزئية من هذا المنطق ، فحلله ورد عليه •

ولم يكن ابن تيمية متخصصا بنقد فرقة معينة ، بل انه وجه سهام نقده الى كل الفرق التى خالفت بفلسفتها الكتاب والسنة لأن كل مذهب عنده من الحق بمقدار ماوافق فيه الكتاب والسنة، أما ماوراء ذلك ، فانه يعتبر فى نظر الشيخ خطأ وضلالا عن هدى الكتاب والسنة •

نقد ابن تيمية الفلسفة نقدا شديدا فاقت بمراحل ما نقدها به الغزالى فأبطل كل قضاياها التى جرى وراءها فلاسفة « المعتزلة والأشاعرة والجهمية » بقولهم : ان الله هو علة وجود العالم ، وأن العالم قديم بالزمان ، وأنه لا يعلم الا ذاته ، وأنه يعلم الأشياء على وجه كلى ، كما ناقشهم فى صفات : السمع والبصر والكلام والارادة والمحبة والقدرة التى وصف الله تعالى بها نفسه فى كتابه العزيز •• ناقشهم فى هذه القضايا ورد عليهم فى رسالته « التدمرية » و « الفتوى الحموية » التى وردت

اليه من أهل حماة ـ •• رد عليهم ردا مفحما ، وهو فى هذا الرد يسير حسب المنهج الذى يسير عليه فى كل بحوثه وآرائه •

والمنهج الحق الذى يراه الشيخ فى هذه المسائل هو : التعويل على النصوص وحدها ، والايمان بكفايتها ، فمتى صح النص لايجوز العدول عنه ، ولا معارضته بقياس عقلى ، أو بكشف صوفى ، أو غير ذلك مما يدعيه الناس طرقا للمعرفة ، بل كل وظيفة العقل ـ الذى اعتمد عليه هؤلاء الفلاسفة ـ فى هذه المسائل ، أن يفهم المسلم ما جاءت به النصوص دون أن يبتكر من عنده ـ أى من عقله ـ شيئا ، لأن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ، وبين للناس كل ما يحتاجون اليه من أمر دينهم ، ولم يكلهم فى شىء من ذلك الى عقولهم ، لاسيما فيما هو من أصول الدين وقضاياه الكبرى ، اذ ليس من المعقول أن يترك ـ وهو الذى علم أمته كل شىء حتى كيفية الوضوء والاستنجاء ـ هذه المسائل ناقصة تحتاج الى العقل ليتولى تكملتها ، فالعقائد الايمانية مذكورة ببراهينها فى القرآن ، وما على العقل الا أن ينظر فى هذه البراهين ليستدل بها ، وليفهم جهة الدلالة فيها ، وليس له أن يبتكر من عنده شيئا من البراهين •

وابن تيمية يعتقد أن الله عز وجل فى كل ما ثبت له من الأسماء والصفات لا يماثل شيئا من خلقه ، ولا يماثله شىء ، بل كل ما ثبت له من صفات الكمال فهو مختص به لا يشاركه فيه أحد •• وان كان هناك من الأسماء ما يطلق على صفات الله كما يطلق على صفات خلقه ، فليس هذا الا محض اشتراك فى الاسم لا يقتضى مماثلة صفاته لصفاتهم أصلا ، فتسمية قادرا ، أو تسمية العبد قادرا لا توجب مماثلة قدرة الله لقدرة العبد ، وكذا

تسميته عالما ومريدا وحيا وسميعا وبصيرا لايستلزم أن علمهم كعلمه ، ولا ارادتهم كارادته .. وهكذا يقال فى جميع ما وصف الله به نفسه مما قد يوصف به المخلوق ، فهو يثبت لله صفاته وأسـماءه دون تعطيل ولا تأويل ولا نفى ، لكن بدون تكييف لها فهو كما قال سبحانه وتعالى (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير [1]) .

---

(١) سورة الشورى آية : ١١ .

رَأيُهُ فِى اَلفِقْهِ

عرفنا فيما سبق أن ابن تيمية نشأ فى أسرة اشتهرت بامامتها بمذهب ابن حنبل رضى الله عنه وان ابن تيمية سار على هذا المذهب عقيدة وعملا وافتاء ، لكنه مع هذا كان يجتهد ولو خالف ذلك آراء ما أجمعت عليه المذاهب الأربعة ومنها مذهب ابن حنبـــل •

فقد أفتى الشيخ فى عدة مسائل باجتهاده كانت مثارا لهياج هذه المذاهب عليه والى القارىء بعض الأمور التى أفتى فيهــا باجتهاده والتى كانت محلا للخلاف مع غيره :ـــ

١ ــ القول بوجوب الكفارة فى الحلف بالطلاق ، وأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع الا واحدة ، وأن الحلف بلفظ الطلاق لا يقع به الطلاق اذا حنث ، وليس على الحالف الا كفارة •

٢ ــ القول بقصر الصلاة فى كل ما يسمى سفرا طويلا أو قصيرا دون اشتراط مسافة معينة •

٣ ــ القول بأن سجود التلاوة لا يشترط له وضـــوء ، كما يشترط للصلاة •

٤ ــ القول بأن من أكل فى شهر رمضـــان معتقدا أنه بليل ، فبان الوقت نهارا ، لاقضاء عليه •

٥ ــ القول بأن المتمتع يكفيه سعى واحد بين الصفا والمروة ، كما هو فى حق القارن والمنفرد •

٦ ــ القول بإباحة وطء الوثنيات بملك اليمين ، أى مثل اماء أهل الكتاب •

٧ ــ القول بجواز بيع الأصل بالعصير [1] ، كالزيتون بالزيت ، والسمسم بالسيرج •

٨ ــ القول بجواز التيمم لمن خاف فوات العيد والجمعة باستعمال الماء •

٩ ــ القول بتوريث المسلم من الكافر الذمى « وهذا القول مال اليه أخيرا ، وله فيه بحث طويل ليس هذا مجاله » •

١٠ ــ القول بأن المرأة اذا لم يمكنها الاغتسال فى البيت ، أو شق عليها النزول الى الحمام ، لها أن تتيمم وتصلى •

١١ ــ القول بأنه لا حد لأقل الحيض ولا لأكثره ، ولا لأقل الطهر بين الحيضتين ، ولا لسن اليأس من الحيض ، لأن ذلك يرجع الى ما تعرفه كل امرأة عن نفسها ، فهى أدرى بظروفها •

١٢ ــ القول بأن تارك [2] الصلاة عمدا ، لا قضاء عليه

---

(١) اى بيع الأصل قبل أن يصير عصيرا .

(٢) أى من تركها سنوات ، أما من فاتته فريضة أو فريضتان نسيانا أو سهوا فعليه الأداء وذلك كما روى فى الصحيحين ان النبى صلى الله عليه وسلم قال « من نام عن صلاة أو نسيها فوقتها أن يتذكرها ، فان الله تعالى يقول (وأقم الصلاة لذكرى) » .

ولا يشرع له القضـــاء ، بل عليـــه الاكثار من النوافل ، رجاء غفران الله له .

اختياراته العلمية :

كان لابن تيمية آراء كثيرة ، لم يتبع فيها مذهبا فقهيا معينا ، وان كانت لا تخرج عن أقوال فقهاء المذاهب الأربعـــة ، وهذه الآراء ضمنها كتابه « الاختيارات العلمية » ، وهى تعالج مسائل فى العبادات والمعاملات ، والى القارىء نماذج منها .

١ ـــ فى الزكاة :

سئل : هل يجوز نقل زكاة أهل بلد الى فقراء بلد آخر ؟ . وهل يجوز نقلها من الريف الى فقراء أهل المصر الجامع ؟ .

ويرد ابن تيمية : واذا نقل الزكاة الى المســـتحقين بالمصر الجامع (أى الى أهل العاصمة) ، مثل أن يعطى من بالقاهرة من العشور التى بأرض مصر ، فالصحيح جواز ذلك ، فان سكان المصر انما يعانون من مزارعهم ـــ أى مزارع أهل غير المصر ـــ بخلاف النقل من اقليم ، مع حاجة أهل الاقليم المنقول عنه .

وسئل : وهل يجوز اعطاء شىء من الزكاة لمن لا يقوم بما عليه من طاعة الله والعمل بشرائعه ؟

فأجاب : انه لا ينبغى أن يعطى الزكاة لمن لا يستعين بهـــا على طاعة الله فان الله فرضها معونة على طاعته ، فمن لا يصلى ـــ مثلا ـــ من أهـــل الحاجات الذين هم من مصـــارف الزكاة لا يعطى شيئا ، حتى يتوب ويلتزم أداء الصلاة .

والله تعالى انما أحل الطيبات لمن يستعين بها على طاعته لا فى معصيته ، لقوله تعالى (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا مــا اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات) •

لهذا لا يجوز أن يعان بالمباح ــ وهى الزكاة التى يستعين بها الفقير على الطعام على المعصية ، كمن يعطى اللحم والخبز لمن يشرب عليه الخمر ، ويستعين به على الفواحش •

وسئل : هل الذى عليه الزكاة تبرأ ذمته منها اذا أعطاهــا بنفسه لأحد مصارفها ، أو سلمها له وكيله فى دفعها ، أو أعطاها للوالى الذى هو بحكم منصبه نائب عن المسلمين جميعا عادلا كان أو ظالما ؟ •

فأجاب : يبدأ بدفع الزكاة لولى الأمــر العــادل ، وان كان ظالما لا يصرف الزكاة فى المصارف الشرعية ، فينبغى لصاحبها ألا يدفعها اليه ، فان حصل له ضرر بعدم دفعها اليه ، فانــه يجزىء عنه ، اذا أخذت منه فى هذه الحالة عند أكثر العلماء ، وهم فى هذه الحالة ظلموا مستحقيها ، كولى اليتيم ، وناظر الوقف ، اذا قبضا المال وصرفاه فى غير مصارفه الشرعية •

٢ ــ فى البيع :

سئل عن العقد بين البائع والمشترى لسلعة : هل يتم شرعا اذا اتخذ المشترى السلعة وسيلة لتحقيق غرض غير شرعى؟[١]

(١) هذا ملخص لمعنى السؤال « الكاتب » .

ويجيب : لا يصح بيع ما قصد به الحرام ، كعصير يتخذه ـ المشترى ـ خمرا اذا علم ـ البائع ذلك .

وقال بعض الفقهاء : لو ظن الآجر أن المستأجر يستأجر الدار لمعصية لبيع الخمر ونحوه ، لم يجز له أن يؤجره تلك الدار ، ولم تصح الاجارة ، والبيع والاجارة سواء ..

ورأى ابن تيمية فى هذا يساعد على تصحيح الأوضاع الفاسدة التى تسود المجتمع الاسلامى ، ويوافق قول الرسول صلى الله عليه وسلم « انما الأعمال بالنيات » ، فهو يمنع بيع الشىء اذا علم صاحبه أن المشترى سيستعمله فى معصية الله ، ويكون البائع بمنعه بيع الشىء قد ساعد على صلاح المجتمع .

الباب الرابع
آراؤه فى قضايا الحياة
فى الاجتماع والسياسة

كان ابن تيمية رجل اصلاح اجتماعى وسياسى أيضا •• كان حريصا على نصرة الحق ، وحريصا على أن يصل الحق الى جميع من فى المجتمع حتى يتخلص من الظلم الاجتماعى ، ويتحرر من سيطرة الظالمين ، كما كان حريصا على أن يتمسك الولاة بالحق ، وأن يعملوا به حتى يعم الناس الخير والعدل والأمن ، فيكونون بذلك أهلا لأن يسند اليهم شرف القيام بحكم الناس •

كان لابن تيمية آراؤه السديدة فيما يجب أن يقوم عليه المجتمع ، اذا أراد هذا المجتمع أن يكون مجتمعا سليما •• وكانت له آراء فى السياسة الصالحة التى اذا عرفها كانوا صالحين، يحكمون الأمة على أساس من الرحمة والعدل والاحسان ، وفى الجانبين « الاجتماعى والسياسى » سنعرض رأى ابن تيمية ليتعرف القارىء عليهما •

فى الاجتماع :

يقول الله تعالى (وما أمروا الا لعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) ويقول

جل وعلا (ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلهـا واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) •

فعلى هذين الأســاسين « اخلاص الدين لله وحده ، والعدل فى المعاملة » كان شيخ الاسلام يرى أن المجتمع المسلم يجب أن يقوم عليهمـا •

أما اخلاص الدين لله : فان الشيخ يرى أن هـذا يعنى : توجيه العبادة لله وحده ، وافـراد الله تعالى وحده بالـدعاء والسؤال والذلة والخضوع والمسكنة ، لأنه وحده بيده الامر كله من ضر ونفع ، وخير وشر ، وسعادة وشـقاء ، واعـزاز واذلال •• هذا هو المراد باخلاص الدين لله •• أما ما يدعيه الناس من أن المراد بهذا هو : أنه لابد من واسطة بين الله وبين عباده لقضاء الحاجات ، كأن يستغيث الانسان بميت ويعتقد فيه القرب من الله ، وأنه قادر بموجب هذه القربى من الله أن يقضى له حاجة من جلب نفع أو دفع ضر ، ، فهـذا من أعظم الشرك الذى كفر به المشركون فى عهد الرسول ، حيث اتخذوا من أصحاب القبور شفعاء ووسطاء لله ، فاستحقوا بذلك غضب الله ولعنته •

والشيخ يرى : أن الوسائط لا تكون بين الله وبين عبـده ، وانماتكون بين انسان وآخر ، فاذا أراد أحد الناس ــ مثلا ــ قضـاء مصلحة له عند كبير بيده أمر من الأمور ، جاز له أن يأخذ له واسطة لقضاء ما يريده ، لأن هذا الكبير لا يعرف عن حال صاحب المصلحة شىء الا الظاهر •

أما اللهتعالى فانه يعلم أحوال العباد ــ ظاهرها وباطنها ــ

ولا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء .. فهو ليس فى حاجة الى من يخبره بأحوال عباده ، ويعلم كل ما يدور بأفكارهم وخواطرهم .

وبهذا البيان يؤكد شيخ الاسلام ابن تيمية نفى الوساطة بين الله وبين عبده ، فالدين يجب أن يكون خالصا لله ، فلا يرجو الانسان غيره ، ولا يجوز أن يقصد سواه ، والله تعالى يقول لنبيه (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان) ولم يقل « فليسألنى بواسطة » .

وقد تناول ابن تيمية هذه المسألة بالتفصيل فى رسالة « زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور » .

وفى هذه الرسالة يستهل الكلام بقوله « .. الذى بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، هو : عبادة الله وحده لا شريك له ، واستعانته ، والتوكل عليه ، ودعاؤه لجلب المنافع ، ودفع المضار ، كما قال تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين الا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) وقال تعالى (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) وقال (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) .

وبعد ذلك ، يأخذ الشيخ فى بيان الأعمال الشركية ، فيذكر : أن من أتى الى قبر نبى أو صالح يسأله حاجته ويستنجد به ، فهذا شرك صحيح ، يجب أن يستتاب صاحبه ، فان تاب ، والا

تتل ، وان قال : أنا أسأله لكونه أقرب الى الله منى ليشفع لى فى هذه الأمور ، لأنى أتوسل الى الله به ، كما يتوسل الى السلطان بخواصه وأعوانه ، فهذا من أفعال المشركين والنصارى ..

والسؤال الذى يرى الشيخ ابن تيمية أن « الاسلام لايمنعه » هو ، أن يدعو الحى للحى ، كأن يقول انسان لآخر : ادع لى . كما كان الصحابة رضوان الله عليهم يطلبون من النبى صلى الله عليه وسلم الدعاء ، فهذا مشروع فى الحى ، وأما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم ، فلم يشرع لنا أن نقول: ادع لنا ، ولا : اسأل لنا ربك ، فان هذا لم يفعله أحد من الصحابة والتابعين ، ولا أمر به أحد من الأئمة . ولا ورد فيه حديث .

بل الذى ثبت فى الصحيح ، أنهم لما أجدبوا فى زمن عمر رضى الله عنه ، أن المسلمين استسقوا بالعباس — أى سألوا الله بالعباس أن ينزل عليهم المطر — وقالوا : اللهم انا كنا نتوسل اليك بنبينا فتسقنا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا ، فيسقون .. (١)

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ميت ويرقد بجوارهم ، فلم يذهبوا الى قبره ليقولوا له : يارسول الله ادع لنا ، واستسق لنا ونحن نشتكى اليك مما أصابنا ، أو نحو ذلك ، وكذلك لم يفعل هذا أحد من الصحابة قط ، بل هو بدعة ما أنزل الله بها من سلطان .

---

(١) صحيح البخارى .

وأما العدل فى المعاملة : فيرى ابن تيمية أن المجتمــع الذى يتمتع بحياة فاضلة عادلة هو ذلك المجتمــع الذى يحكمه رجل يؤمن بالله ورسوله ، يحب دينه ووطنه وأمته ، فكلما عمل ذلك الحاكم على دفع الظلم ، وكافح لابعاد شبحه عن المجتمع عاش أفراد هذا المجتمع آمنين مطمئنين •

كما يبين ابن تيمية فى « رسالة الحسبة » : واجبات المحتسب، ومنها : وجوب التزام الناس بأداء الأمانــات ، وترك الخيانة والغش والتدليس فيما يتعاملون فيه ، وتسعير عروض التجارة اذا لزم الأمر ، والزام أهل الحرف والصــناعات بالعمل فيما يحتاجه الناس •

ويذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يعنى بمحاســبة العمال على المستخرج والمنصرف ، ويروى فى هذا حديثــا جاء فى الصحيحين (أن النبى صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا من الأزد يقال له « اللتبية » على الصدقات ، فلما رجع حاسـبه فقال : هذا لكم ، وهذا أهدى الى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانــا الله ، فيقول : هذا لكم وهذا أهدى الى ، أفلا قعد فى بيت أبيه وأمه فينتظر أيهدى اليه أم لا : والذى نفسى بيده لا نستعمل رجلا على العمل مما ولانا الله ، فيغل منه شيئا الا جاء يوم القيامة يحمله على رقبته ، ان كان بعيرا له رغاء ، وان كانت بقرة لها خوار ، وان كانت شــاة تيعر[1] •• ثم رفع يديه الى السماء وقال : اللهم هل بلغت ، اللهم هل بلغت » [2] •

(١) التيعر : التى تحدث صوتا .
(٢) البخارى ومسلم .

ثم يذكر ابن تيمية واجبات غير هذه ، يتعين على الامام ـ أو من يوليهم أمرها ـ القيام بها ، وذلك ضمانا للعدل ، وابعادا للظلم عن المجتمع ، « كما تحـدث عن وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعن وجوب تنفيذ الوالى للعقوبات الشرعية والمالية المنصوص عليها فى الشرع الاسلامى على المخالفين فى المجتمع الذى لا يأتمر بمعروف ، ولا ينتهى عن منكر حتى يسير المجتمع على جادة الطريق ، ويسوده العدل ، ويتـلاشى منه الظلم •

فى السياسة :

الولايـــات

ضرورة الامارة فى المجتمع :

يقال : ان الانسان مدنى بالطبع ••

واذا كان الأمر كذلك فـانه لابد للانســان من الاجتمــاع والتعاون مع بنى وطنه ، ليحقق لنفسه عناصر الحياة •

ومن سنة الحياة أن يكون لكل انســان آمر يأمره لمـا فيه المصلحة وناه ينهيه عما فيه المفسدة ، واهلاك نفســه ، ذلك الآمر الناهى المرشد هو « الحاكم » •

وفى هذا يقول شيخ الاسلام ابن تيمية « ويجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيام للدين الا بها ، فان بنى آدم لا تتم مصـلحتهم الا بالاجتماع لحاجة بعضهم الى بعض ، ولابد لهم عند الاجتماع من رأس ، حتى

قال النبى صلى الله عليه وسلم ، « اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم » .

فأوجب النبى صلى الله عليه وسلم ، تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والعدل ، واقامة الحج ، والجمع والأعياد ، ونصر المظلوم ، واقامة الحدود — وكل هذا — لا يتم الا بالقوة والامارة — راجع : السياسة الشرعية .

والحاكم العادل الذى تختاره الأمة لسياسة حياتها ، وتحقيق الخير لها ، يجب أن يعان بالنصح والارشاد كلما تطلب الأمر ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم « الدين النصيحة ، الدين النصيحة » قالوا : لمن يا رسول الله ؟ . قال « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » [1] .

الولاية للأصلح :

ولابد للوالى من مساعدين يعاونونه فى مهام الدولة ، وتصريف شئونها ، وفى هذه الحالة يتعين على الوالى أن يختار مساعديه من المشهور لهم بالكفاءة والأمانة ، فانه بمقدار صلاحهم ، تسير الأمور فى الأمة على أحسن حال ، وفى هذا الجانب يتحدث ابن تيمية فى كتابه « السياسة الشرعية » فيقول :

---

(١) صحيح مسلم .

« .. فيجب على ولى الأمر أن يولى على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل ، قال النبى صلى الله عليه وسلم « من ولى من أمر المسلمين شيئا ، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح منه ، فقد خان الله ورسوله » [1] .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمسلمين ..

وليس له أن يقدم رجلا لأنه طلب الولاية ، أو لأنه سبق غيره فى طلبها ، بل ان طَلبه أحرى أن يكون سببا لمنعه ماطلب ، فقد جاء فى الصحيحين أن قوما دخلوا على رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألوه ولاية ، فقال « انا لانولى أمرنا هذا من طلبه » ، وقال لعبد الرحمن بن سـمره « يا عبد الرحمن ، لا تسأل الامارة ، فانك ان أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وان أعطيتها عن مسألة وكلت اليها » [2] .

ثم يقول « ولقد دلت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أن الولاية أمانة يجب أداؤها فى مواضع مثل ما تقـدم ، ومثل قوله لأبى ذر رضى الله عنه فى الامارة « انها أمانة ، وانها يوم القيامة خزى وندامة ، الا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها » [3] .

---

(1) رواه الحاكم فى صحيحه .
(2) البخارى ومسلم .
(3) رواه مسلم .

ويروى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « اذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة »[1] قيل : يارسول الله وما اضاعتها ؟ قال « اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة » .

المقياس الصحيح لاختيار الوالى :

وابن تيمية يضع مقياسا لصلاحية ولى الأمر ، متخذا مقياسه هذا من منهجه العام الذى يسير عليه فى كل أموره وهو « الكتاب والسنة » .

ويرى ابن تيمية أن على ولى الأمر أن يختار الصالح للأمر ، والله تعالى يقول (فاتقوا الله ما استطعتم) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم «اذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» .

ثم يقول فى هذه الصلاحية أيضا « ان الولاية لها ركنان : القوة والأمانة .. قال تعالى (ان خير من استأجرت القوى الأمين) قال صاحب مصر ليوسف عليه السلام (انك اليوم لدينا مكين أمين) وقال تعالى فى صفة جبريل (انه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين) — راجع : السياسة الشرعية .

هكذا يبين لنا الشيخ المقياس الصحيح الذى يجب أن يتم على أساسه اختيار الوالى ليكون صالحا لمهام الارشاد ، جديرا بمكان القيادة ، وهو « القوة والأمانة » .

---

(١) البخارى .

ثم يتحدث الشيخ ــ بعد بيان عنصرى القــوة والأمانة ــ موضحا كلا من هذين العنصرين ، فيحدد ــ أولا ــ القوة التى تصــلح لكل عمل من الأعمال ، لأن القوة ليست واحدة فى كل عمل ، فهى تختلف من عمل لآخر ، ولنأت بمثلين من قوله فى هــذا .

القوة فى الولاية :

القوة فى كل ولاية بحسبها ، فالقوة فى امارة الحرب ، ترجع الى شجاعة القلب ، والى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها ، فان الحرب خدعة ، والى القدرة على أنواع القتال .. ونحو ذلك ، كما قال تعالى (وأعدوا لهم ما اســتطعتم من قوة ومن رباط الخيل) وقال النبى صلى الله عليه وســلم « ارموا واركبوا ، وان ترموا أحب الى من أن تركبوا ، ومن تعلم الرمى ثم نسيه فليس منا » ــ راجع : السياسة الشرعية ــ لابن تيمية .

القوة فى الحكم :

« والقوة فى الحكم بين الناس ترجع الى العلم بالعدل الذى دل عليه الكتاب والسنة ، والى القدرة على تنفيذ الأحكام » راجع: السياسة الشرعية لابن تيمية ــ

مقارنة بين القوة والأمانة :

ثم يعقد الشيخ مقارنة بين القوة والأمانة ، ويبين أهمية كل منهما فى مجال العمل ، فيقول « فالواجب فى كل ولاية الأصلح بحسبها ، فاذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة ، والآخر أعظم

قوة قدم أنفعهما لتلك الولاية وأقلهما ضررا فيها ، فيقــدم فى امارة الحروب : القوى الشــجاع ، وان كان فيه فجور ، على الضعيف العاجز ، وان كان أمينا .. كما سئل الامــام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين فى الغزو ، أحدهما قوى فاجــر ، والآخر صالح ضعيف ، مع أيهما يغزو ؟ . فقال « أما الفاجر القوى ، فقوته للمسلمين ، وفجوره على نفسه ، وأما الصالح الضعيف ، فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين ، فيغزى مع القوى الفاجر ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم«ان اللهيؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » ــ راجع : الســياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية لابن تيمية ص ١٧ ــ ١٨

الأمــانة :

أما الأمانة : فلها مجال يجب أن تكون لها فيه الأهمية على القوة ، وهى ولاية حفظ الأموال ، لكن اذا احتاج الأمر الى أخذ المال ممن هى عليهم ، لتنفق فى مصالح الأمة ، فلابد فى هذه الحالة من « القوة والأمانة » فيجب أن يــولى على الأمــر : عاملا قويا يستخرج المال بقوته ، وكاتبا أمينا يحفظ المال بأمانته ونزاهته .. هذا ما يراه الشيخ ابن تيمية .

ثم يقول الشيخ « وهكذا فى سائر الولايــات ، اذا لم تتم المصــلحة برجل واحد ، جمع بين عــــدد ، فلابد من ترجيح الأصلح ، أو تعدد المولى اذا لم تقع الكفاية بواحد » ــ راجع: السياسية الشرعية .

ولاية القضاء :

ثم ننتقل الى ولاية القضاء ، فنجد أنها تحتاج الى عناصر « العلم والتقوى ، والكفاية » .

أى العلم بالأحكام الشرعية ، وتقوى الله وخشيته ، والكفاية ليكون جديرا بالقيام بمنصب القضاء .

معرفة مقصود الولاية :

والمقصود بالولاية ، هو تحقيق المصلحة للناس بالطرق المشروعة ، وأن يراعى اقامة دين الله فى الأموال ، فانه بدون اتباع الدين لا تصلح للناس حال ، ولا يستقيم لهم أمر، وفى هذا نقرأ لابن تيمية تحت عنوان « معرفة الأصلح » بكتابه: السياسة الشرعية .

« والمهم فى هذا الباب معرفة الأصلح ، وذلك انما يتم بمعرفة مقصود الولاية ، فاذا عرفت المقاصد والوسائل تم الأمر ، فلهذا لما غلب على أكثر الملوك قصد الدنيا دون الدين ، قدموا فى ولايتهم من يعينهم على تلك المقاصد ، وكان من يطلب رئاسة نفسه يؤثر تقديم من يقيم رئاسته ، وقد كانت السنة ، أن الذى يصلى بالمسلمين الجمعة والجماعة ويخطب بهم ، هم أمراء الحرب الذين هم نواب ذى السلطان على الجند ، ولهذا لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم ، أبا بكر فى الصلاة قدمه المسلمون فى امارة الحرب وغيرها ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم ، اذا بعث أميرا على حرب كان هو الذى يؤمره للصلاة بأصحابه ، كما استعمل عتاب بن أسيد على مكة ، وعثمان بن

أبى العــاص على الطائف ، وعليــا ومعاذا وأبــا موسى على على اليمن ، وعمرو بن حزم على نجران ، كان نائبه هو الذى يصلى بهم ويقيم فيهم الحدود ، وغيرها مما يفعله أميرالحرب، وكذلك كان خلفاؤه بعده ومن بعدهم من الملوك الأمويين وبعض العباسيين ، وذلك لأن أهم أمر الدين : « الصلاة والجهاد » ، ولهذا كانت أكثر الأحاديث عن النبى صلى الله عليه وســلم فى الصلاة والجهاد •

ولما بعث النبى صلى الله عليه وسلم معــاذا الى اليمن قــال « يا معاذ ، ان أهم أمرك عندى الصلاة » • وكذلك كان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يكتب الى عماله « ان أهم أموركم عندى الصــلاة ••• »

الى أن يقول الشيخ « فالمقصود الواجب بالولايات : اصلاح دين الخلق الذى متى فاتهم خسروا خسرانا مبينا ، ولم ينفعهم ما نعموا به فى الدنيا ، واصلاح مالا يقوم الدين الا به من أمر دنياهم ، ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول : « انما بعثت عمالى اليكم ليعلموكم كتاب ربكم ، وســنة نبيكم ، ويقيموا بينــكم دينــكم » •

فى الأموال :

وبعد أن يتكلم الشــيخ عن الأمانة فى الولايات يتكلم عن أمانة الأموال وأدائها ، وهذه الأمانة يجب أداؤها بنصــوص الكتاب والســنة ، وعلى ذوى الســلطان ونوابه فى العطاء أن يؤتوا كل ذى حق حقه ، وعلى جباة الأموال أن يؤدوا الى ذوى

السلطان ما يجب ايتاؤه اليه ، وكذلك على الرعيـة يجب أداء ما يجب عليهم من الحقوق المالية ، كما يرى أنه ليس من حقوق الرعية أن يطالبوا ولاة الأموال بأكثر مما يستحقونه والا كانوا من أولئك الذين قال الله فيهم (ومنهم من يلمزك فى الصدقات فان أعطوا منهـا رضـوا ، وان لم يعطـوا منهـا اذا هم يسخطون) •

واذا كان السلطان ظالما ، فهل للرعية أن يدفعوا له ما يجب عليهم من الأموال ؟ • ويجيب الشـيخ بأنه اذا كان السـلطان ظالما ، فليس من حق الرعية أن يمتنعوا عن ذلك ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بدفع الأموال للولاة الجائرين ، فقال « أدوا اليهم الذى لهم ، فان الله سائلهم عما استرعاهم »[1] •

وليس للولاة فى الأموال أن يقسـموها حسب أهـوائهم ، لأنهم هم أمناء ونواب ووكلاء ، وليسوا ملاكا والرسول صلى الله عليه وسلم يقول فى هذا « انى والله لا أعطى أحدا ولا أمنع أحدا ، وانما أنا قاسم أضع حيث أمرت[2] » •

وعلى هذا النهج النبوى سار خلفاء رسول الله الراشدين ، وهذا رجل يقول لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، لو وسعت على نفسك فى النفقة من مال الله تعالى ؟ فيجيبه الفاروق بقوله: آتدرى مثلى ومثل هؤلاء ؟ ، انه كمثل قـوم كانوا فى سـفر فجمعوا مالا وسلموه الى واحد ينفقه عليهم ، فهل يحل لذلك الرجل أن يستأثر عنهم بشىء من أموالهم ؟ ••

---

(١) البخارى ومسلم .
(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة .

ثم ينتقل حديث الشيخ عما يقع فيه كل من الولاة والرعية من الظلم ، حين يأخذ الأولون مالا يحل لهم ، ويمتنع الآخرون عن دفع ما يجب عليهم ، فيبين أنه من المتفق عليه عند الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ـ بلا خلاف ـ أن كل من فعل محرما أو ترك واجبا ، استحق العقوبة ، فان لم تكن مقدرة بالشرع ، كان تعزيرا يجتهد فيه ولى الأمر ..

ثم يتحدث عما يأخذه القائمون على الأموال من مال المسلمين بغير حق ، فيبين : أن لولى الأمر أن يستخرج ذلك منهم ، ومن هذا أيضا ، الهدايا التى يأخذها الولاة والعمال بسبب العمل ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « هدايا الأمراء غلول [1] ، وقال أبو سعيد الخدرى : هدايا العمال [2] غلول .

واذا استرد ولى الأمر ما يكون قد أخذه الولاة والعمال من الرعية بغير وجه حق ، عليهم ردها الى أصحابها ، أو صرفها فى المصالح العامة ، كالانفاق على الجند أو تجهيزهم السلاح أو نحو ذلك ـ انظر : السياسة الشرعية ص ٤٣ وما بعدها .

وجوه صرف الأموال :

وبعد أن يتحدث الشيخ ابن تيمية عن وجوب أداء الأمانة فى الأموال ، يتحدث عن وجوه صرف الأموال ، فيبين أن المال يجب أن يقسم حسب مصالح المسلمين كما يلى :

---

(١) غلول : خيانة .
(٢) العمال : يندرج تحت هذا الاسم : الولاة والحكام .

الجنود : لأنهم أهل النصرة والجهاد ، وهم أحق النــاس بالفىء ، لأن النصر لا يحصل الا بهم ــ هذا فيما يختص بمال الفىء ــ أما سائر الأموال العامة ، فهى لجميع المصالح وفاقا

ومن المستحقين فى الأموال العامة أصحاب الولايات : كالولاة والقضاة ، والعلماء ، والسعاة على المال جمعا وحفظا وقسمة ، ونحو ذلك حتى أئمة الصلاة والمؤذنين ونحو ذلك •

ومن المستحقين لها : ذوو الحاجات الذين ليس لهم مايكفيهم ، وعلى ولى الأمر أن يكفيهم شر العوز والسؤال •

وقد اختلف الفقهاء فى تقديم ذوى الحاجات فى مال الفىء ، فمنهم من قــال : يقدمون ، ومنهم من قال : المــال استحق بالاسلام ، فيشتركون فيه كما يشترك الورثة فى الميراث •

وقد ذكر ابن تيمية أنهم يقدمون ، فان النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يقدم ذوى الحاجات فى مال بنى النضير ، وقد أخذ ابن تيمية من قول الخليفة الثانى عمر بن الخطاب فى مصارف الأموال أساسا للتوزيع ، فقال عمر : « ليس لأحد أحق بهذا المال من أحد انما هو الرجل وسابقته ، والرجل وغناؤه ، والرجل وبلاؤه •

وفى سياق الكلام يشرح ابن تيمية تقسيمات عمر الأربعــة لتوزيع الأموال :

الأول : ذوو السوابق ، الذين بسابقتهم حصل المال •

الثانى : من يغنى عن المســلمين فى جلب المنافع لهم كولاة الأمور والعلماء الذين يجلبون لهم المنافع للدين والدنيا •

الثالث ـ من يبلى بلاء حسنا فى دفع الضرر عنهم ، كالمجاهدين فى سبيل الله من الأجناد والعيون ، ومن القصاد والناصحين ونحوهم •

الرابع : ذوو الحاجات •

ثم يقول الشيخ فى هؤلاء « واذا حصل من هؤلاء متبرع ، فقد أغنى الله به والا أعطى ما يكفيه وقدر عمله •

ثم يقول عن المؤلفة قلوبهم « لكن يجوز ، بل يجب الاعطاء لتأليف من يحتاج الى تأليف قلبه ، وقد أباح الله تعالى فى القرآن العطاء للمؤلفة قلوبهم من الصدقات ، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يعطى المؤلفة قلوبهم من الفىء ونحوه وهم السادة المطاعون فى عشائرهم ، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يعطى : الأقرع بن حابس سيد بنى تميم ، وعلقمة بن علاثة العامرى سيد بنى كلاب ، وعيينه بن حصن سيد بنى فزاره ، وزيد الخير الطائى سيد بنى نبهان ، ومثل : سادات قريش من الطلقاء : كصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، وأبى سفيان بن حرب ، وسهل بن عمر ، والحارث بن هشام ، وعدد كثير ، وذلك كما ورد فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه » ـ راجع كتابه : السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية • الصفحات ٤٩ ـ ٥٠ ـ

فى الحدود والحقوق :

يتحدث الشيخ فى كتابه « السياسة الشرعية » عن الحدود والواجبات مستلهما حديثه من قوله تعالى (واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) •

ويبين الشيخ أمثلة من الحدود والحقوق مثل : حـد قطاع الطريق والسراق والزناة ونحوهم فيقـول : « ويجب اقامة الحدود على الشريف والوضيع والقوى والضعيف ، ولا يحل تعطيله لا بشـفاعة ولا بهدية ولا بغيرها ، ولا تحل الشـفاعة فيه ، ومن عطله لذلك وهو قادر على اقامته ، فعليه لعنة الله وملائكته والناس أجمعين •• وهو ممن اشـترى بآيات الله ثمنا قليلا » •

ثم يذكر الشـيخ الدليل على عظم تعطيل هـذه الحـدود والحقوق وخطر تعطيلها على المجتمع بشـفاعة فيقول « وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها ، أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ، فقالوا : ومن يجترىء عليه الا أسامة بن زيد ، قال الرسـول صلى الله عليه وسلم : « أتشفع فى حد من حدود الله ، انما هلك بنو اسرائيل أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » •

ثم يذكر الشيخ أنه لا بأس من قبول الشفاعة فى السـارق قبل أن يصل الأمر الى السلطان أو من له القضاء والا كان حراما واثما كبيرا ، وفى هذا يقول « روى مالك فى الموطأ أن جماعة أمسكوا لصا ليرفعوه الى عثمان رضى الله عنه ، فتلقاهم الزبير ، فشفع فيه ، فقالوا : اذا رفع الى عثمان فاشـفع فيه عنده ، فقال : اذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفع يعنى الذى يقبل الشفاعة » ـ راجع : السياسة الشرعية ص ٦٢ ـ

كما يذكر الشيخ دليلا آخر فى هذا « وكان صفوان بن أمية نائما على رداء له فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء لص فسرقه ، فأخذه فأتى به النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمر بقطع يده ، فقال : يا رسول الله أعلى ردائى تقطع يده ؟ أنا أهبه له ، فقال « فهلا قبل أن تأتينى به عفوت عنه » ثم قطع يده — السياسة الشرعية ص ٦٣ —

يعنى صلى الله عليه وسلم ، أنك لو عفوت عنه قبل أن تأتينى به لكان ، فأما أن تأتينى بعد أن رفع الى وأقمت عليه الحد ، فلا يجوز تعطيل الحد بشفاعة ولا رهبة ولا غير ذلك .

ثم يتناول الشيخ فى حديثه : عقوبات المحاربين وقطاع الطرق ، فيبين واجب السلطان فى اقامة الحد عليهم ، فاذا امتنعوا عليه ، فانه على المسلمين قتالهم باتفاق الفقهاء حتى يقدر عليهم كلهم ، وأن المقصود من قتالهم التمكن منهم لاقامة الحدود عليهم ومنعهم من الفساد .

وبعد ذلك يتحدث الشيخ عن جرائم « السرقة والزنا وشرب الخمر والقذف » ويبين حد كل جريمة على حدة ، وما يتصل بها من ظروف وأحكام فقهية —السياسة الشرعية ص ٩٦ — ١١١

ثم يتحدث بعد ذلك عن : المعاصى التى ليس فيها حد مقدر ، ويبين الجلد الشرعى لها ، وهذه المعاصى يذكرها ابن تيمية بقوله « كالذى يقبل الصبى والمرأة الأجنبية ، أو يباشر بلاجماع ، أو يأكل ما لا يحل كالدم والميتة ، وأن يقذف الناس بغير الزنا أو يسرق من غير حرز ، أو شيئا يسيرا ، أو يخون أمانته ،

كولاة أموال بيت المال أو الوقوف [1] ، ومال اليتيم ونحو ذلك اذا خانوا فيها ، وكالوكلاء والشركاء اذا خانوا أو يغش فى فى معاملته ، كالذين يغشون فى الأطعمة والثياب ونحو ذلك ، أو يطفف المكيال والميزان ، أو يشهد بالزور أو يلقن شهادة الزور ، او يرتشى أو يتعزى بعزاء [2] الجاهلية ، أو يلبى داعى الجاهلية الى غير ذلك من أنواع المحرمات .. فهؤلاء يعاقبون تعزيرا أو تنكيلا وتأديبا بقدر ما يراه الوالى على حسب كثرة ذلك الذنب فى الناس وقلته ، فاذا كان كثيرا زاد فى العقوبة ، بخلاف ما اذا كان قليلا ، وعلى حسب حال المذنب فاذا كان من المدمنين على الفجور ، زيد فى عقوبته ، وبخلاف المقل من ذلك ، وعلى حسب كبر الذنب وصغره ، فيعاقب من يتعرض لنساء الناس وأولادهم ما لا يعاقب من لم يتعرض الا لمرأة واحدة أو صبى واحد » .

القسم الثانى :

ثم يتحدث عن الحدود والحقوق فى قضايا الاعتداء على النفوس بالقتل ، وعلى الأعضاء ، والجسم بالجراح ، وعلى الأعراض ، وكل ما فيه اعتداء على شخص معين .. ثم يذكر قتل النفس الآدمية بغير الحق ، ويبين أحوال القصاص من القاتل أو العفو عنه ، أو أخذ الديه منه حسب مشيئة ولى المقتول .

---

(١) الوقوف : جمع وقف .
(٢) يتعزى : أى يدعو بدعوى الجاهلية كالعصبية ونحوها .

ثم يذكر الجراح ، ويبين كيفية القصاص من المعتدى والمساواة فى القصاص منه ، بأن تقطع يده أو مفصله أو تشج رأسه ، كما فعل فى المجنى عليه على أساس السن بالسن ، والعين بالعين .

ثم يذكر انتهاك الأعراض عن طريق السب أو الفعل ، وكيفية القصاص من المعتدى .. الخ ما تكلم فيه من الحدود والحقوق وبيان القصاص فيه .. ويتحدث عن كل ذلك فى فصول خاصة ذاكرا النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، وآراء السلف والأئمة ـ راجع السياسة الشرعية ص ١٤٤ وما بعدها ـ

ابن تيمية الكاتب الأديب :

وابن تيمية لم يكن صاحب رأى وفقه واجتهاد ، ومصلح اجتماعى وسياسى فحسب ، وانما كان صاحب قلم رصين ، وأسلوب رفيع ، ويظهر ذلك من رسائله التى كتبها ، ونأتى بواحدة منها ، وهى التى أرسلها لوالدته وهو محبوس بمصر .. قال فيها رحمه الله :

« من أحمد بن تيمية ، الى الوالدة السعيدة ، أقر الله عينها بنعمه ، وأسبغ عليها جزيل كرمه ، وجعلها من خيار امائه وخدمه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فانا نحمد اليكم الله الذى لا اله الا هو ، وهو للحمد أهل ، وهو على كل شىء قدير ، ونسأله أن يصلى على خاتم النبيين ، وامام المتقين محمد عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما ، كتابى اليكم عن نعم من الله عظيمة ، ومنن كريمة ، وآلاء جسيمة ،

نشكر الله عليها ، ونسأله المزيد من فضله ، ونعم الله كلما جاءت فى نمو وازدياد ، وأياديه جلت عن التعداد ، وتعلمون أن مقامنا الساعة فى هذه البلاد انما هو لأمور ضرورية ، متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا ، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم ، ولو حملتنا الطيور لسرنا اليكم ، ولكن الغائب عذره معه وأنتم لو أطلعتم على باطن الأمور ، فانكم — ولله الحمد — ما تختارون الساعة الا ذلك ، ولم نعزم على المقام والاستيطان شهرا واحدا ، بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم ، وادعوا لنا بالخير ، فنسأل الله العظيم ، أن يخير لنا ولكم وللمسلمين ما فيه الخيرة فى خير وعافية •

ومع هذا فقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة والهداية والبركة ما لم يكن يخطر بالبال ، ولا يدور فى الخيال ، ونحن فى كل وقت مهمومون بالسفر ، مستخيرون الله سبحانه وتعالى ، فلا يظن الظان أنا نؤثر على قربكم شيئا من أمور الدنيا قط ، بل ولا نؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه ، ولكن ثم أمورا كبارا تخاف الضرر الخاص والعام من اهمالها ، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب •

والمطلوب كثرة الدعاء بالخير ، فان الله يعلم ولا نعلم ، ويقدر ولا نقدر ، وهو علام الغيوب ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « من سعادة ابن آدم استخارته الله ورضاه بما يقسم الله له ، ومن شقاء ابن آدم ترك استخارة الله وسخطه بما يقسم الله له » •

« والتاجر يكون مسافرا ، فيخاف ضياع بعض ماله ، فيحتاج

أن يقيم حتى يستوفيه ، وما نحن فيه أمر يجل عن الوصف ، و لاحول ولا قوة الا بالله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته كثيرا كثيرا ، وعلى ســائر من فى البيت من الكبار والصغار ، وسائر الجيران والأهل والأصحاب واحدا واحدا ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبة وســلم تســليما » .

نهاية أيامه

ثلاث جبهات :

كان الشـيخ رحمه الله يحارب فى ثلاث جبهات ، الجبهة الأولى : كان فيها فارسا وبطلا فى ساحة الجهاد التى دخلها ضـد التتار ، لينقذ الدين والوطن من أيدى أعداء الاسـلام والبشرية ، فهو يلقى بنفسه فى ساحة الوغى محاربا ومقاتلا ومدافعا •

وهو يخطب الناس يحثهم على القتال ، وبذل النفس لحماية الوطن •

وهو يقنع الحكام والأمراء ليجعلهم يبذلون المـال والعـدة للمعركة •• لمعركة النصر والسيادة والسلطان للاسلام •

والجبهة الثانية : نراه فيها يحارب الظلم والطغيان والأهواء ويشـد النكير على من يحكمون بخـلاف ما أنزل الله ، وبين رسوله صلى الله عليه وسلم •• نراه يحارب كل ذلك بجهده وطاقته ، ليسود المجتمع العدل والخير والأمن •

أما الجبهة الثالثة : فقد كان ميدانها مع خصومه من الفقهاء والمتصوفة •• كان الشيخ يحارب البدع والخرافات والشرك ، ويعمل للقضاء على مظاهرها ليعود المسلمون الى عقائد الاسلام ومبادئه فى صفائها ونقائها وبساطتها وجمالها •

أنكر ابن تيمية على الفقهاء والصوفية ما يعيشـون فيه من جمود وتبعية وتقـاليد ، فكان يعلن رأيه بصراحة فى مسـائل يعتبرها الخصـوم من مقدسـات ما ورثوه عن الآباء والأجداد والبيئة •

كانوا ينظرون الى هذه الموروثات نظـرة تقديس واحترام وتعظيم بحيث ينبغى أن تظل هكذا مقدسـة محترمة معظمـة أجيالا متعاقبة دون مساس •

لهذا كان هجوم ابن تيمية لهـذه الموروثات الباطلة سـببا فيما أصـابه من محن وشـدائد ومتاعب ختمت بها نهايته فى الحيـاة •

لكن الشيخ ابن تيمية لم تخل حياته من أنصار ومحبين له ، وقفوا الى جانبه أثناء محنه ، يشدون أزره وقت الضيق •

فها هو ذا جمال الدين أبو الحجاج من العلماء الذين عاصروا ابن تيمية يقول « ما رأيت مثله أحدا أعلم بكتاب الله وسـنة رسوله ، ولا أتبع لهما منه » •

وقاضى القضاة أبو عبد الله بن الحريرى يقول « ان لم يكن ابن تيمية شيخ اسلام فمن هو ؟ » •

والشيخ ابراهيم الرقى يقول « الشيخ تقى الدين ابن تيمية يؤخذ عنه ، فان طال عمره ملأ الأرض علما ، وهو على الحق ، ولابد من أن يعاديه الناس ، لأنه وارث علم النبوة » •

وبشأن جهاد الشـيخ مع خصومه ، يذكر ابن رجب وهو ينقل عن الذهبى بعض ما كتبه عنه « •• ولقد نصر السـنة

المحضة ، والطريقة السلفية ، واحتج لها ببراهين ومقدمات، وأمور لم يسبق اليها ، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون ، وهابوا وجسر هو عليها ، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياما لا مزيد عليه وبدعوه وناظروه وكابروه ، وهو ثابت لا يداهن ولا يمارى ، بل يقول الحق المر الذى أداه اليه اجتهاده .. فجرى بينه وبينهم حملات ووقفات ، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة فينجيه الله ، فانه دائم الابتهال ، كثير الاستغاثة والاستعانة به ، قوى التوكل ، ثابت الجأش » .

هكذا شهد لابن تيمية ولعلمه وجرأته ودفاعه عن الحق بعض معاصريه من الفقهاء والأئمة الذين أحبوه وناصروه ووقفوا الى جانبه ، وهى شهادة يكفى أنها تأتى من علماء وفقهاء لهم وزنهم وقدرهم فى حساب الشهادة .

المحنة الأولى :

مر بنا أن ابن تيمية كان رجل علوم عديدة فياضة ، ومعارف كثيرة ، لا يتقيد فى علومه ومعارفه بمذهب أو فكر معين ، بل كان مجتهدا حرا ، يعتمد فى آرائه على نصوص الكتاب والسنة النبوية ، وما صح من أصول التشريع الأخرى .

جاءته فتوى من بعض أهل حماة وهى الفتوى المعروفة بـ « الفتوى الحموية » يستفتونه فيها عن بعض صفات الله ، وهى تدور حول آيات الله تعالى (الرحمن على العرش استوى) (وجاء ربك والملك صفا صفا) (يد الله فوق أيديهم) ، هل هذه الآيات تدل حقا على أنه استوى على عرشه » « وأنه

يجىء وينتقل » « وأن له يدا » وكل هذه الآيات تعطى معنى التشبيه والتجسيم ؟ أم يجب تأويل الأولى بأن المراد بها « أنه استولى على العرش » والمراد بالثانية « جاء أمرنا » والمراد بالثالثة « أن قدرته فوق قدرة البشر جميعا » ؟ •

أجاب الشيخ رحمه الله على الفتوى بما يعتقده ويؤمن به : أنه يجب علينا أن نؤمن بما جاء فى القرآن من هذه الصفات دون تأويل ، لأن تأويلها وبيان المراد منها يعد أمرا فوق طاقتنا ، وينبغى فى نفس الوقت تنزيه الله ، بعدم تشبيهه ببعض مخلوقاته فى الصفات •

وعلى ذلك فهو يؤمن بأن « الله استوى على العرش » و « ان الله يجىء » و « أن الله يده فوق أيديهم » وكل ذلك بلا تعطيل ولا تجسيم ولا تشبيه ، فهو (ليس كمثله شىء) كما تفيد الآية ١١ من سورة الشورى •

لكن خصومه كانوا يرون ويعتقدون غير ذلك •• كانوا يرون تأويل هذه الآيات وأمثالها لسد باب التجسيم والتشبيه عن الله تعالى •

لهذا ثاروا عليه ، وتحزبوا ضده ، ورموه بالتجسيم والتشبيه ، وقام جماعة منهم بدعوته الى مجلس القاضى الحنفى جلال الدين ، لكنه رفض الحضور الى ذلك المجلس ، فشنعوا عليه ، بأن نادوا فى البلد ضد رأيه الذى أبانه فى « الرسالة الحموية » •

لكن أحد الأمراء انتصر له ، وأرسل يطلب من قالوا ضده ،

فاختفى الكثيرون منهم ، كما ضرب بعض من ثاروا عليه فى البلد، فسكت الباقون ، وسكتت الفتنة •

ثم اجتمع الشيخ بالقاضى امام الدين ، وعنده جماعة من العلماء والفضلاء ، باحثوه فى الرسالة وناقشوه فى مواضع منها ، فأجاب الشيخ عما سألوه فيه بأحاديث مقنعة مفحمة مؤيدة بالدليل القاطع ، فاقتنع أهل الحق من الحاضرين بما سمعوه منه من الحق وقالوا : هذا معتقد سلفى جيد •• وأرسل المجلس بذلك قرارا الى السلطان ، وكان ذلك بمثابة تاج النصر والعلا على رأس الشيخ ، وانتهت المحنة بسلام •• راجع : البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ٤ ، طبقات ابن رجب ج ٢ ص ٣٩٦ —

المحنة الثانية :

لم يتركه خصومه بعد أن انتصر عليهم وعادوا مخذولين مهزومين مجروحين ، بل أرادوا أن يعكروا عليه صفوه ، وأن يكدروا عليه حياته •

استطاع خصومه أن يجعلوا السلطان يسأله عن معتقده ، فجمع نائب السلطان : القضاة والعلماء بالقصر ، وأحضر الشيخ ، وسأله عن معتقده فقرأ عليهم « العقيدة الواسطية » التى جاء سؤالها من أهالى واسط ورد عليها ، فقرأها الشيخ ، فناقشوه وانتهى الأمر الى : أن عقيدة الشيخ سنية سلفية •• ويقال : ان بعضهم أقر العقيدة كرها ، وبعضهم وافق عليها باقتناع •

ويحسن بنا أن نأتى هنا بافتتاحية رسالة « العقيدة الواسطية » حيث يقول فيها :

« .. أما بعد فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة ، أهل السنة والجماعة ، وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وبالبعث بعد الموت ، والايمان بالقدر خيره وشره ، ومن الايمان بالله ، الايمان بما وصف به نفسه فى كتابه ، وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، بل نؤمن بأن الله سبحانه (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) ، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته ، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ، لأنه سبحانه لا سمى له ، ولا كفو له ، ولا ند له ، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى ، فانه أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ، ثم رسله صادقون مصدقون ، بخلاف الذين يقولون عنه ما لايعلمون » .

وتجددت خصومته بين أعدائه ، فقد عرفنا أن الشيخ ابن تيمية كان يهاجم الطرق الصوفية وسلوكهم فى العبادة ، ومن هذه الطرق : الطريقة الأحمدية ، فقد هاجم الشيخ هذه الطريقة وكذب مزاعمهم حين يدعون : أنهم يدخلون النار دون أن تمسهم ويزعمون أن هذه كرامات لهم .

حضر جماعة منهم الى نائب السلطنة يشكونه ليوقف هجومه عليهم ، وعلى مزاعمهم وبدعهم .. فيجيب الشيخ فى جرأة

وايمان « هذا لا يمكن ، ولابد لكل واحد أن يدخل تحت الكتاب والسـنة قولا وفعلا ، ومن خرج عنهما وجب الانكار عليه ، ومن أراد منهم أن يدخل النـار فليدخل أولا الحمام ويغسـل جسده جيدا ، ثم يدخل الى النار بعد ذلك ان كان صادقا •

« ولو فرض أن أحدا من أهل البدع دخل النـار بعد أن يغتسل ، فان ذلك لا يدل على صـلاحه ولا على كرامته ، بل حاله من أحوال الدجاجلة المخالفة للشريعة ، اذا كان صاحبها على السنة ، فما الظن بخلاف ذلك » •

ثم انتهى الأمر الى أن من خالف أحدا من رجال هذه الطريقة الكتاب والسنة تضرب عنقه ـ راجع : البداية والنهاية لابن كثير ج ١٤ ص ٣٦ ـ

المحنة الثالثة :

ومرة ثالثة تقوم الفتنة بشأن عقيدته ، ويطلبه السـلطان ليحضر الى القاهرة لسؤاله عما يتحدث به ، وسافر ابن تيمية كطلب السلطان ، وعقد له غداة يوم وصوله مجلس بالقلعة حضره القضاة وأكابر الدولة ، ثم أخذوا فى التحقيق معه وسـؤاله ، وسأله شمس الدين بن عدنان ، « المدعى عليه » بأنه : يعتقد أن الله على العرش حقيقة ، وأنه يشار اليه بالاشارة الحسية ، وأنه يتكلم بحرف وصوت ، وطلب المدعى أن يعزر ابن تيمية على ذلك •

وسأله القاضى ابن مخلوف : ماتقول يافقيه ؟ فأخذ الشيخ فى حمد الله والثناء عليه ، ثم قال للحضور « من هو الحاكم

فى ؟ • فأشاروا : القاضى هو الحاكم ، فقال الشيخ لابن مخلوف : أنت خصمى ، فكيف تحكم فى ! • وغضب •• فغضبوا عليه واشتدوا ••

فخرج من المجلس محبوسا فى برج، حتى محبوه وأنصاره من الحنابلة فى مصر والشام ، لم يسلموا من الأذى والبطش والحبس ، وأخذ على بعضهم تعهد بالرجوع عن عقيدة الشيخ التى حوكم بسببها هو وأخوه شرف الدين كما جرت فتن كثيرة بهذا السبب •

ولبث الشيخ فى السجن عاما وبضعة أشهر ، عرضوا خلال مدة الحبس عليه أن يرجع عن عقيدته ويفرجوا عنه فرفض •

ثم جاء حسام الدين مهنا بن عيسى أمير العرب فى ربيع الأول ٧٠٧هـ وأخرج الشيخ بنفسه من السجن بعد أن استأذن فى ذلك ، وعقدت له مجالس حضرها أكابر الفقهاء ،فصمم الشيخ على موقفه ، وتحير نائب السلطنة والفقهاء والقضاة فى أمره — انظر : البداية والنهاية لابن كثير ج ١٤ ص ٤٥ — •

وبعد أن أطلق سراحه ، رفض العودة الى دمشق ، وفضل الاقامة بالقاهرة ، يقرىء العلم كعادته ، ويتحدث الناس بعلمه فى المساجد والأماكن العامة ، وكان الناس يأتون اليه يستمعون له ويتزودون بالمعرفة •

الى السجن مرة أخرى :

لم يسكت عنه أعداؤه ، ولم يكفوا عن الوشاية والحرب ضده ، فقد تقدم جماعة منهم الى القاضى — أو الحاكم — فى

شوال من نفس السنة ، وذكروا له فى شكايتهم أنه يحمل على « ابن عربى » وغيره من رجال التصوف فى عقيدتهم المعروفة بـ « وحدة الوجود » •

وبعد أن تكلم الشيخ بما يعتقده قال بعض الحاضرين : انه ليس عليه فى هذا شىء وحكموا ببراءته •• ومع ذلك فقد رأت الدولة أن آراء ابن تيمية غدت مصدر فتن وثورات وقلاقل ، ويغلب على الظن أن هـذا الرأى من الدولة كان بايحـاء من « الشيخ نصر المنبجى » عدو ابن تيمية ، فرأت الدولة وجوب وضع حد لهذه الحالة ، حتى تستـريح الدولة وتريح الناس ، فكان أن خيره الملك المظفر « ركن الدين بيبرس الجاشنكيز » بين الاقامة فى الاسكندرية أو دمشق بشروط معينة ، يلتزم بها أو الحبس ، فاختار الشـيخ السجن مرددا قول يوسف عليه السلام (رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه) •

ومن داخل السجن فى مصر أخذ ابن تيمية ينشر دعوته على الناس الذين كانوا يأتون اليه من كل مكان يستفتونه •

وصار علم ابن تيمية حديثا على كل لسان ، وفقهه غذاء لكل مائدة •

ولم تسكت الأصوات المستعدية على ابن تيمية ، فقد عادوا ووشوا به من جديد ، وسعوا لنفيه الى الاسكندرية ، ونجحوا فى مساعيهم ، ونقل الشيخ الى سجن آخر بالاسكندرية •

وفى المنفى الجـديد لم يتركه خصـومه ، فأطلقوا ضـده الأكاذيب ، فمرة يشيعون أنه قتل ، ومرة أخرى يشيعون أنه

مات غرقا ، وكان ذلك بقصد صرف أنظار أنصاره ومحبيه عنه ، ولكن الشـيخ لم يعبأ بهـذا كله ، ولم يفتر جهاده فى منفاه الجديد ، بل أخذ يشـتغل بالعلم والفتيا ، ويذيع آراءه على الناس ، فعرفه نفر كبير ، وجاءه مريدون جدد ، وأحبوه وظلوا يترددون عليه فى محبسه •

الى القـاهرة :

وحدث أن قدم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الى السلطنة ، فأمر باحضار الشـيخ الى القاهرة فى شوال ٧٠٩ هـ وأكرمه اكراما فياضا ، واجتمع به فى مجلس ضم القضاة من مصر والشام ، وأعيان الدولة ، ثم استشاره فى خصومه ليأخذ بثأره منهم ، لكن الشيخ رفض هذا الانتقام وارتفع عن الجرح الذى أصابه من خصومه أكثر من مرة ، فقـال بعض الحاضرين من خصومه : ما رأينا أغتى من ابن تيمية ، سعينا فى دمه ، فلما قدر علينا عفا عنـا — راجع تاريخ : ابن الوردى ج ٢ ص ٢٦٧ ، ابن كثير ج ١٤ ص ٨٧ —

واستمر الشيخ فى القاهرة آخذا نفسه فى الاشتغال بالعلم والفتيا ، وتعليم الناس الدين الحق فى عزم وقوة ، ثم سافر الى دمشق بعد غيبة عنها سبع سنين ، وكانت عودته عام ٧١٢ —

وفى دمشق واصل نشر دعوة ربه التى آمن بها ، ووقف حياته عليها ومضى يعلم الناس من الكتاب والسـنة ، ويعطى لهم الفتاوى فى مختلف الأمور من مذهب السلف •

وحدث أن تعرض الشيخ بالكلام فى مسألة الحلف بالطلاق[1] ورأى خصومه أن أمره بلغ درجة الخطورة ، فسـعوا لدى السلطان حتى نجحوا فى صدور مرسوم سلطانى عام ٧١٨ بمنع الشيخ من الفتوى ، وعقد لذلك مجلس ونودى بذلك فى البلد ليكون الناس على بينة من أمورهم .

لكن هذا المرسوم ، وهذه الاجراءات لم تسكته عن الجهـر برأيه لكل من يستفتيه فى مسألة الطلاق ، واستمر على هذا حتى حبس بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوما ، ثم أخرج من السجن بعد ذلك ، وعاد الى ما كان عليه من الاشتغال بالعلم والفتيا .

وكثرت فتاوى الشيخ للناس فى مسألة الطلاق ، كما يعتقده ، فعقد له لذلك أكثر من مجلس للتحقيق معه وسؤاله وتوجيه اللوم له ، وكان فى كل مجلس يؤكدون له منع الافتاء ، وينادون بذلك فى أنحاء البلاد .

نهاية الشيخ :

أخذ خصومه يبحثون له عن شىء يحققون به أملهم فى القضاء عليه ، فظفروا بفتيا قديمة له فى مسألة « شد الرحال الى قبور الأولياء والصالحين » . ظفروا بتلك الفتوى ، وجاءوا بها لمـا يعرفون ما للنبى من مكانة مقدسـة عند العـامة ، فأثاروها وأرسلوا بها الى السلطان .

---

(١) راجع هذا فى « رأيه فى الفقه » ص ٨٤ .

وكان الشيخ يرى فى هذه الفتوى : أن شد الرحال الى أضرحة الأولياء غير مشروع ، وهذا بنص حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام، والمسجد الأقصى ، ومسجدى هذا [1] » .

ورأى خصوم الشيخ أن هذه الفتوى تنقص من مقامات الأولياء والصالحين ، ومخالفة لاتجاهاتهم فى وجوب شد الرحال الى أضرحة الأولياء لدعوتهم ، والاستشفاع بهم واتخاذهم وسطاء لهم عند الله ، وذلك حسب ما ورثوه من عادات وتقاليد .

والذى زاد الأمر سوءا ضده ، أن خصومه نقلوا الفتوى الى الناس مشوهة مبتورة .. وعلم الناس بذلك ، فحدثت فتنة ، ورفع الأمر الى السلطان الذى أصدر عام ٧٢٦ مرسوما باعتقال صاحب الفتوى .

وسر الشيخ بهذا الاعتقال ورحب به ، وتم حبس الشيخ بالقلعة بدمشق ، ثم لحق به أخوه زين لخدمته ، وجماعة من أصحابه المؤمنين به بعد أن لقوا من الاهانة والاساءة ما لقوا ، وبذلك ضمن خصوم الشيخ اخماد دعوته ، واطمأنوا الى عدم نشرها بأية وسيلة .

ومن داخل جدران السجن ، أقبل الشيخ الصابر الراضى بقضاء الله وقدره على عبادة الله ، ومطالعة كتابه الكريم ، والتأليف ، والرد على مخالفيه ، وكانت مسألة الطلاق مما كتبه

---

(١) رواه مسلم .

فيه ورد على مخالفيه ، واستجهلهم ، وأظهر أنهم قليلو الصناعة فى العلم والمعرفة .

وسعى الخصوم الألداء من جـديد .. وأسفر سعيهم عن حرمان الشيخ من الكتب والأوراق والأقلام ، بل ان نطاق ذلك الحرمان قد اتسع ، فشـمل المطالعة والقراءة ، فحملت كتب الشيخ وأوراقه وكل الأسـلحة التى كان يدمر بها معتقدات مخالفيه الباطلة .. حملت كل تلك الأسلحة الى خارج السجن لتحفظ فى مكتبة العادلية .. وبذلك منع الشيخ من الكتابة .

لكن الشيخ المجاهد الصابر ، لم تضق نفسه ، ولم تضعف عزيمته ، فاضطر الى تدوين آرائه وخواطره بالفحم على الورق المتناثر ــ وقد حفظ التاريخ بعض هذه الكتابات ، كما أنه أقبل على التلاوة والعبادة والتهجد .

ولم تدم هذه المرحلة الأخيرة من حياة الكفاح والنضال التى خاضها الشيخ ، فمرض ، حتى أتاه اليقين بعد أن سجن أكثر من سنتين ، ولم يعلم الناس بمرضه ، ففوجئوا بخبر نعيه .. فبكوه .. وبكوا العلم الذى جاهد من أجله طوال حياته ولقى الكثير من الاساءات والاهانات من أجله .. ثم دفن معه فى التراب الى الأبد .

وفــاته :

ماكان ابن تيمية يائسا فى سجنه ، قانطا من رحمـة الله فى غياهب محبسـه ، بل كان يرى أن ما أصـابه من المحاكمات والمساءلات والاهانة والسجن ، قدرا من الله ، فيه الخير الكثير

فقد وجد الفرص الطيبة لأن يتفرغ لعبادة الله ، ولممارسة العلم وتتبع معانى القرآن ، وقد نقل عن ابن رجب قوله وهو فى السجن « وقد فتح الله على فى هذا الحصن فى هذه المرة من معانى القرآن ، ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها ، وقد ندمت على تضييع أكثر أوقاتى فى غير معانى القرآن » .

وكان فى محبسه فى القلعة يقول « لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبا ما عدل عندى شكر هذه النعم » أو قال « ما جزيتهم على ما تسببوا لى فيه من الخير » .

وأخيرا .. آن لابن تيمية .. ذلك العالم الأواب العابد ، والمجاهد الصادق ، والمكافح فى سبيل الله ، والمدافع عن الوطن الاسلامى ، وفى سبيل ارجاع المسلمين الى الحكم بكتاب الله وسنة رسوله .. آن له أن يستريح ويلقى ربه راضيا مرضيا .. آن له أن يخرج من سجنه رغم أنوف أعدائه .. بل وأن يخرج من الدنيا ، وأن يلفظ متاعها وزخارفها ، ويرتاح أعداؤه منه ، ويرتاح هو نفسه منهم ، ويستقر فى مثواه .. فى رحاب الله تعالى ، وهو أطيب رحاب ، وأكرم مثوى .

وكانت وفاته — كما سجل المؤرخ علم الدين البرزالى — ليلة الاثنين ، العشرين من شهر ذى القعدة عام ٧٢٨ هـ ، وهو لا يزال حبيسا بسجن القلعة .

ويروى المؤرخون أن وفاته كانت من الأحداث التى شغلت الناس فى تلك السنة ، وأخذت منهم اهتمامهم ، ويروى المؤرخون فى وصف جنازته ، أنها « كانت عظيمة ، وأنه لم يتخلف

عن الحضور أحد سمع بموته ، كما حضرت النساء الجنازة ،وأن الجميع تزاحموا على الجنازة ، وعلت الأصوات بالبكاء والنحيب، وانطلقت الألسنة بالثناء عليه والدعاء له » وقد دفن ابن تيمية فى مقبرة الصوفية الى جانب أخيه « شرف الدين عبد الله » •

هـذا هو ابن تيمية الامام العالم التقى الورع الذى عاش حياة صاخبة بالرأى والمبـدأ والعقيدة •• حياة حافلة بالكفاح والنضال بالسيف •• والقلم •• واللسان •• مع الخصوم من قومه والأعداء من التتار •

تراثه العـلمى :

خلف لنا الامام ابن تيمية تراثا ضخما تتناقله الأجيال ، ينبع بالعلم والمعرفة ويفيض بالخير والهدى ، لأنه سار فيه على نهج الكتاب والسنة •

لقد كان ابن تيمية بحرا زاخرا من العـلم والمعرفة ، تلقى علوم عصره بالدرس الواسع ، والتمحيص الدقيق ، ثم أحاط معرفة وخبرة بعلوم الكلام والمنطق والتصوف والفلسفة ، ورد على مخالفيه وخصومه برسائل صغيرة ، أو بكتب مطولة ، فترك لنا عددا ضخما من المؤلفات قدره من ترجموا له بأنه وصل الى « خمسمائة مجلد » •

ويذكر ابن الوردى فى تاريخه ، : أن له فى غير مسألة مصنف مفرد ، كمسألة التحليل ، والرد على ابن مظهر الرافضى الحلى فى ثلاثة مجلدات كبار ، وتصنيف فى الرد على تأسيس التقديس للرازى فى سبعة مجلدات •

وكتاب فى الرد على المنطق ، وكتاب فى الموافقة بين المعقول والمنقول فى مجلدين ، وكتاب السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية ، وكتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام .

وبالرجوع الى دائرة المعارف الاسلامية نجد أن مادة « ابن تيمية » التى كتبها الأستاذ « محمد بن شنب » ذكر بها أن مؤلفات ابن تيمية وصلت الى خمسمائة وذكر ما يأتى :

« رسالة الفرقان بين الحق والباطل » معالم الأصول — وهو تفنيد لقول الفلاسفة والقرامطة الذين يتهمون الأنبياء بالكذب فى بعض الأحيان — ، « التبيان فى نزول القرآن » ، « الوصية فى الدين والدنيا » ، « رسالة النية فى العبادات » « رسالة العرش » ، « الرسالة الكبرى » « الارادة والأمر » ، « العقيدة الواسطية » ، « المناظرة فى العقيدة الواسطية » ، « العقيدة الحمدية الكبرى » ، » ، « رسالة فى الاستغاثة » ، « الاكليل فى المتشابه والتأويل » ، «رسالة الحلال» « رسالة فى زيارة بيت المقدس » ، « رسالة فى مراتب الارادة » ، « رسالة فى القضاء والقدر ، « رسالة فى الاحتجاج بالقدر » ، « رسالة فى درجات اليقين » ، « كتاب بيان الهدى من الضلال فى أمر الهلال » ، « رسالة فى سنة الجمعة » ، « تفسير المعوذتين » ، « رسالة فى العقود المحرمة » ، « رسالة فى معنى القياس » ، « رسالة فى السماع والرقص » — وهى مؤلفة فيما يفعله أرباب الطرق الصوفية فى أذكارهم المبتدعة — ، « رسالة فى الكلام على الفطرة » ، « رسالة فى الأجوبة عن أحاديث القصاص » ، « رسالة فى رفع الحنفى يديه فى الصلاة » ، « كتاب مناسك

الحج » ، «كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ، « كتاب الواسطة بين الخلق والحق » ، « كتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام » ، « كتاب التوســل والوســيلة » ، « كتاب جواب أهل العلم والايمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أن (قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن » ، « كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » ، « الرســالة البلعلبكية » ، « الجوامع فى السياسة الآلهية والآيات النبوية » ، « تفســير سورة النور » ، « كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول »، « كتاب تحجيل أهل الانجيل » ــ وهو فى الرد على النصرانية « كتاب المســألة التعبيرية » ، « كتاب العقيــدة التدمرية » ، « اقتضاء الصراط المستقيم ومجانية أصحاب الجحيم » ــ وهو فى الرد على اليهود والنصارى ــ ، «كتاب الرد على النصارى». « كتاب مســألة الكنائس » ، « كتاب فى الكلام على حقيقــة السلام والايمان » ، « العقيدة المراكشية » ، « كتاب فى مسألة العلو » ــ وهو فى التحــدث عن الله ــ ، « نقــد تأسيس الجهمية » ، « رسالة فى سجود القرآن » ، « رسالة فى سجود السهو » ، « رسالة فى أوقات النهى والنزاع فى ذوات الأسباب وغيرها » ، « كتاب أصول الفقه » ، « كتاب الفرق المبين بين الطلاق واليمين » ، « مســألة الحلف بالطلاق » ، « كتــاب الفتــاوى » ، « جوامع الكلم الطيب فى الأدعية والأذكار » ، « رسالة العبودية » ، « رسالة تنوع العبادات » ، « رسالة فى زيارة القبور والاســتنجاد بالمقبــور » ، « رســالة المظالم المشتركة » ، « رسالة الحسية فى الاسلام » .

هذه هى بعض مؤلفات الامام الراحل ابن تيمية التى تركها

لتكون منهلا عذبا ، وموردا صافيا نقيا لطلاب العلم والمعرفة ، ومرجعا هاما فى الأحكام والشرائع ، ومختلف الأمور التى تهم المجتمع الاسلامى المعاصر فى كل جانب من جوانب حياته .. ولا عجب .. فان ابن تيمية كان وما يزال علمـا من أعلام الهدى ، واماما من أئمة الدين المعدودين .

رحم الله ابن تيمية ، وأجزل مثوبته جزاء ما قـدم للدين والعلم ، وللأمة الاسلامية من خير وهدى ، وجعله (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشـهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) ..

مطابع الاهــرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٣ / ٤١٨٢

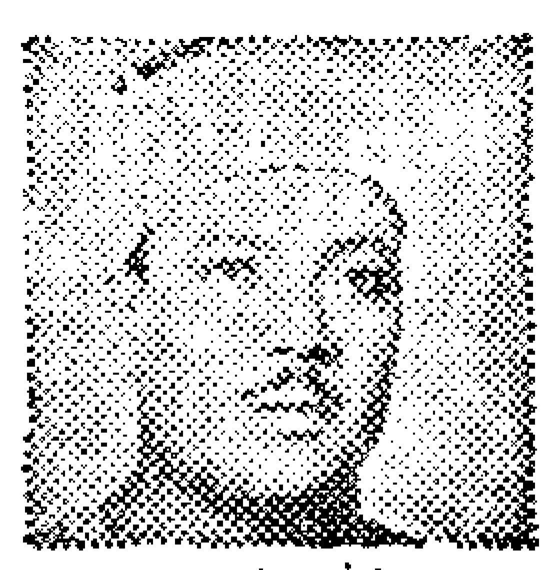
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يسر
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
أن يقدم للعالم الإسلامي

لأول مرة يتم تسجيل كامل للقرآن الكريم مجودًا بأصوات كبار القراء



الشيخ
مصطفى اسماعيل



الشيخ
عبد الباسط عبد الصمد



الشيخ
محمود خليل الحصري



الشيخ
محمود على البنا

مع كل اسطوانة غلاف فاخر

سعر البيع للاسطوانة الواحدة ٦٤ قرشا

14
15

مراكز البيع :

القاهرة : مخازن القرآن المرتل ٧٦ شارع الجمهورية الدور الثالث

الاسكندرية : فرع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٤٢ شارع سعد زغلول الدور الرابع

الثمن قرشان

مطابع الاهرام التجارية